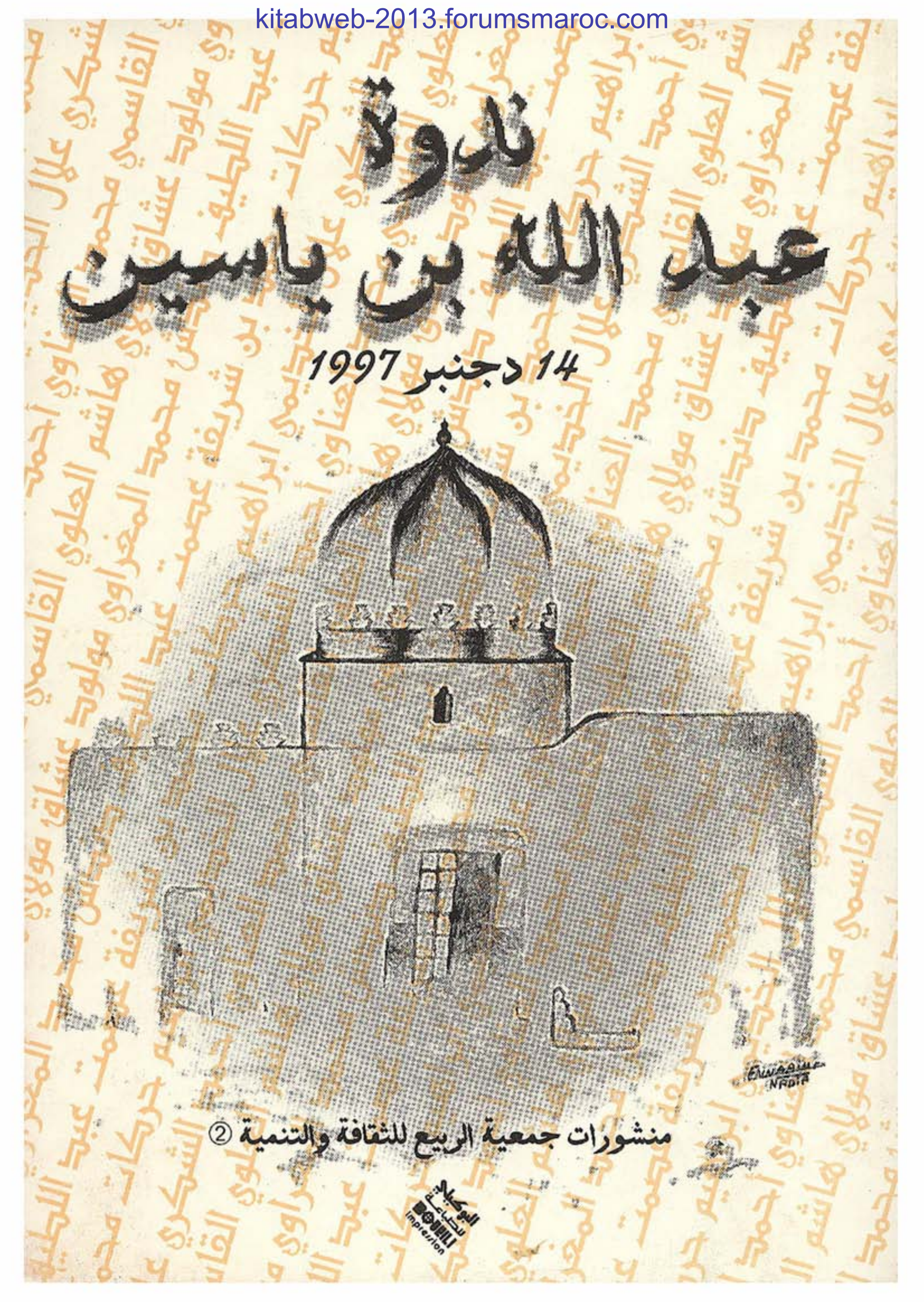
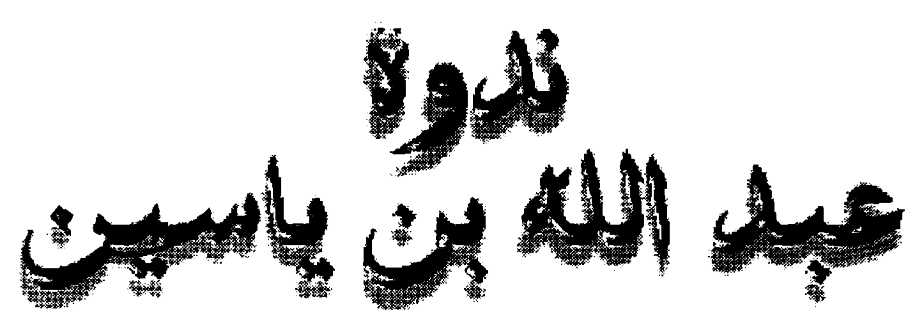

ندوة
عبد الله بن ياسين
14 دجنبر 1997
منشورات جمعية الربيع للثقافة والتنمية ②



14 دجنبر 1997

أشرفت على تنظيم الندوة جمعية أصدقاء التراث
بتنسيق مع جمعية الربيع للثقافة والتنمية / الخميسات

يعود ريع هذا الكتاب للمساهمة في أشغال ترميم ضريح
عبد الله بن ياسين مؤسس الدولة المرابطية

الطبعة الأولى
1998

رقم الإيداع القانوني
1998 / 1254

الرقم الدولي المعياري للكتب 7 - 1 - 1918 - 9981 ISBN



البوكيلي للطباعة والنشر والتوزيع
43 ، زنقة محمد عبده - القنيطرة
هاتف 00 99 37 / 37 99 37 فاكس 35 99 37

غلاف الفنانة نادية النعيمي

تقديم

ابراهيم حركات

هناك أشخاص كثيرون في تاريخ المغرب منذ العصر القديم، ساهموا : كل بطريقته وفي حدود ممكناته، في صنع هوية المغرب عقيدة وفكرا وقومية، وبينهم ساسة ومثقفون وشرائح اجتماعية تختلف ذهنياتها وهمومها، لكن رسم الخطوط الكبرى لترسيخ الوحدانية في الدين، والوحدة في الإتجاه السياسي والاجتماعي، لم ينجح في تحقيقه إلا قلة قليلة من الشخصيات . ولقد كان عبد الله بن ياسين الجزولي من هذه الفئة التي وضعت خطوط الوحدة المزدوجة، بل الوحدة الثلاثية الدين، المذهب، المجتمع المتكامل الذي تضبط شؤونه دولة واحدة .

لم يكن لقب مهدي المرابطين الذي خصه به مؤرخو عصرهم، ضرب من الألقاب الفخمة المصطنعة ، فهو، وإن لم يشهد ثمار جهوده ومسيرته الصعبة : فقد أشهر حربا لا هوادة فيها على الانحراف العقدي والديني وجعل من الفقهاء انطلاقا من شخصه هو، طرفا أساسيا في النظام السياسي والنظام القضائي. وسار كل من أبي بكر بن عمر، ويوسف بن تاشفين، في خطه تماما.ومن ثم، التحمت معظم أجزاء إفريقيا الغربية مع المغرب حتى وسط الجزائر الحالية شرقا، في وحدة شاملة قوامها الإسلام والمذهب المالكي، وأداتها الفقهاء والجهاز المرابطي .

تعددت الأنظمة السياسة بعد ابن ياسين والمرابطين، وبقي الإسلام وحدهُ، والمذهب المالكي (بدون منافس تقريبا)، قائمين على كل هذه الرقعة الشاسعة. صحيح أن الوثنية

والنصرانية لهما أيضا وجود بإفريقيا الغربية، ولكنه دون قوة الإسلام كما وكيفا.

قيل عن عبد الله بن ياسين إنه كان عنيفا شديد الصرامة، وأن منهجه في الدعوة لم يقم على الحوار والجدل بالتي هي أحسن . ولا يمكن دفع هذه التهم بمجرد السفسطة أو الكلام العاطفي، لأن ما فعله ابن ياسين هو قيادة ثورة، ولكل ثورة عيوبها في النص أو التطبيق، ولكن الأسوأ أن عبد الله بن ياسين كان يجابه منافسين من بعض الفقهاء والزعماء المحليين. والشرائح القاعدية كثيرا ما تحتكم في هذا العصر إلى الكهان والمشعوذين، بسبب نقص التوعية أو انعدامها. فإذا كانت توجه انتقادات إلى ابن ياسين في طريقة عمله فهو لم يدع العصمة قط . وضحايا الثورة التي قادها يمكن أن يكون أغلبهم ضحايا لقصر نظر زعمائهم .

ولو عقدنا مقارنة بين الفكرين : التومرتي والياسيني، لكانت النتيجة أن الفكر التومرتي يمثل نموذجا فريدا للعبقرية السياسية والعقدية والثقافية بين كل أنظمة العالم الإسلامي، بينما يتميز الفكر الياسيني بروحه الأصولية، أو بالأحرى بسماته السلفية، ولكنه في التطبيق أشد صلابة في الاتجاه الوحدوي. ومع ذلك، فهذا الاتجاه في مجال العقيدة والمذهب، فضلا عن الإطار السياسي هو الذي كتب له البقاء والتجدد، في ظل الأنظمة المتعاقبة، مع استمرار مؤثرات تومرتية عميقة أيضا (إشاعة القرآن على أوسع نطاق شعبي، والاهتمام بالحديث النبوي بطرق مختلفة، لاسيما على الصعيد الرسمي)

وهناك صور أخرى من هذه المؤثرات لا يسمح المقام ببسطها.

على أن مخطط ابن ياسين خرج في النهاية بإنجاز ليس له

الآن نظير في العالم الإسلامي، وهو اختفاء الطائفية الدينية والمذهبية كليا لدى المجتمع الإسلامي بالمغرب بالرغم من المحاولات الفردية التي لا أثر لها. والكل يلمس أن الطائفية تعيش أزمة مزمنة منذ قرون، وأنها تتجه في كثير من الحالات إلى الانشقاق السياسي. وهكذا فإن إنجاز هذه المجموعة من الدراسات التي ألقيت عروضا مفصلة أو مجملة في ندوة عبد الله بن ياسين دسمبر 1997 بإقليم الخميسات، ما هو إلا بعض الاعتراف بالجميل لهذه الشخصية التي أعادت صياغة الهوية المغربية بشكل حاسم، حيث أكمل صورتها وضمن لها الاستقرار والرسوخ، بعد أن حدد الأمازيغ من زمن بعيد اختيارهم في الاستقلال السياسي، وهو من أقوى مقومات الهوية الوطنية، ثم حددوا منذ القرن الأول للهجرة، اختيارهم الديني، قبل أن يمهدوا الطريق مع الأدارسة، لحركة عبد الله بن ياسين وكما يلاحظ القارئ الكريم، فإن الدراسات التي تضمنها الكتاب، بالرغم من عدم كثرتها فهي تتسم بالجدية، وتبرز فيها جهود أصحابها، كل بطريقته وفي إطارموضوع بحثه، وفيهم من تألق نجمه في الإشعاع المعرفي عبر العالم العربي وحتى خارجه، كما أن بينهم باحثين شبابا يشقون طريقهم بنجاح، ويتميز عمل كل منهم بأصالته الخاصة. والقلم النسوي الوحيد هو قلم الدكتورة عصمت دندش. وذلك أن الباحثات في تاريخ العصر الوسيط قلة قليلة في العالم العربي جملة.

فلابد إذا، من التنويه بما قدمه كل الزملاء الباحثين من جهد علمي رصين، فهم ضحوا بوقتهم وبراحة فكرهم، لحضور الندوة وإعداد دراساتهم من أجلها.

والشيخ عبد الله بن ياسين، يستحق في الواقع كل هذا وأكثر منه. وقد يكون من عدم الإنصاف ألا يسجل هنا ما قامت

به الأطراف الثقافية (جمعية أصدقاء التراث) والإدارية بإقليم الخميسات، من حيث الاحتفاء بذكرى الشيخ ابن ياسين، وإنجاز أعمال الندوة التي أقيمت لهذا الغرض. كما أن من المؤثر حقا، يتولي عامل الإقليم بكيفية مباشرة وتلقائية، مبادرة تجديد ضريح عبد الله بن ياسين، وبناء مسجد حوله، وبعث الحياة الدينية والثقافية والإجتماعية، على الكدية الشاهقة الوعرة، التي تحتضن ضريح هذا المصلح الذي عاش فقيرا زاهدا، ومات دفاعا عن هوية ناضل من أجلها وعاشت بعده.

حول كتابة سيرة محررة لعبد الله بن ياسين

الدكتور محمد بنشريفة

إن كتابة سير الأعلام هي من حقوق السلف على الخلف وإن عدم القيام بها هو ضرب من عقوق الأحفاد للأجداد، ومنذ زمن بعيد تحسر المؤرخ ابن عبد الملك المراكشي على إهمال أهل المغرب تدوين تراجم أعلامهم،وتخليد مفاخرهم، وتبعه آخرون في تصعيد الحسرات، وتزداد الحسرات على ضياع بعض المدونات، ومنها على سبيل المثال فيما يتعلق بموضوع هذه الندوة فقدان كتاب التاريخ أو تاريخ سبتة للقاضي عياض فقد ترجم في ترتيب المدارك لعبد الله بن ياسين . وكان قريبا من زمنه وبدأ هذه الترجمة بقوله : " ذو الأنباء العظيمة والقصص الغريبة "ولكنه أورد بعض هذه الأنباء والقصص وأحال على بعضها في كتابه المفقود قائلا : "وقد بسطنا أخباره في كتاب التاريخ " فلو حفظت الأجيال السابقة هذا الكتاب النفيس لوصل إلى الأجيال اللاحقة ولكانت فائدته عظيمة في كتابة سيرة الشيخ أبي محمد عبد الله بن ياسين وغيرها .

ولهذا فإن علينا أن نلوم أنفسنا قبل أن نلوم غيرنا على ما يلحق بأعلامنا من إهمال أو نسيان، نقول هذا عندما نفتش عن ترجمة عبد الله بن ياسين في الأعلام للزركلي فلا نجدها ، وكذلك لما نبحث عنها في دائرة المعارف الإسلامية فنفتقدها في طبعتيها القديمة والحديثة فلو وقع منا تنبيه الشيخ الزركلي الذي مكث سفيرا في بلادنا مدة غير قصيرة إلى هذا النسيان لتداركه ولو اتصل أحد المؤرخين المغاربة بالهيئة المشرفة على دائرة المعارف لكانوا تلافوا ربما ذلك الإهمال في الطبعة الثانية

وقد وجدنا هذه الهيئة تستند أحيانا إلى باحثين من البلدان الإسلامية كتابة بعض المواد المتعلقة ببلدانهم وتدخل في دائرة اختصاصهم ، وإذا كان الشاعر يقول :

ما حك جلدك مثل ظفرك فتول أنت جميع أمرك

فإن من أوجب الواجبات على الباحثين منا أن يعتمدوا على أنفسهم في كتابة ما يتعلق ببلدهم ، وهنا نحمد مبادرة معلمة المغرب التي يساهم في كتابة موادها مجموعة من الباحثين .

حضرتني هذه الكلمات وأنا أستعرض ماكتب عن عبد الله بن ياسين ، وقد وجدت أنه قليل في الجملة وأحسست أن هذا الشيخ الشهيد الذي كان وراء تأسيس مملكة كبيرة وخلف إنشاء امبراطورية عظيمة يستحق أكثر من ذلك ،وإني لأرجو وآمل أن يهيئ الله له من يكتب عنه سيرة أو ترجمة محررة وأنا هنا أستعير عبارة الشيخ أمين الخولي التي نعت بها كتابه عن الإمام مالك.

ومع أن الأستاذ المرحوم عبد الله كنون خص الإمام ابن ياسين بحلقة من سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب ، ومع أن الأستاذ الدكتور حسن محمود قد خصص له بابا كبيرا هو الباب الثاني في أطروحته الرائدة : قيام دولة المرابطين،فإن عبد الله بن ياسين يمكن أن يكون موضوع أطروحة على نحو الأطروحة التي أنجزها الدكتور عبد المجيد النجار حول المهدي بن تومرت.

وأرى أن المادة الموجودة يمكن أن تحقق للباحث المجتهد هذا الهدف.

وقد يكون من المفيد أن أذكر بهذه المادة ، ويمكن تقسيمها إلى مادة قديمة ومادة حديثة ويمكن كذلك تقسيم المادة القديمة إلى مادة توجد في كتب التراجم ومادة موجودة في كتب التاريخ وكتب الجغرافيا.

وأبدأ بالقسم الأول من المادة القديمة فأجد الترجمة التي أثبتها القاضي عياض في ترتيب المدارك وهي تأتي في سياق طبقة من فقهاء المغرب الأقصى عاشوا في النصف الأول من القرن الخامس الهجري ثلاثة منهم من أهل فاس ، واثنان مصموديان ، وواحد لمتوني وثلاثة جزوليون أحدهم ابن ياسين كلهم من أصحاب وجاج بن زلو اللمطي وبعدهم خمسة سبتيون .

وترجمة عبد الله بن ياسين هي أطول هذه التراجم وأول مانلحظ فيها أنها أشبه بالسرد التاريخي منها بالشكل البيوغرافي أعني أنها لا تتحدث مثلا عن مقروآته ومروياته وتقتصر على شيخ واحد من شيوخه هو وجاج بن زلو وجل الترجمة سرد لسبب ذهابه إلى الصحراء وأعماله فيها ولانعرف مصدر رواية القاضي عياض وهي تختلف مع رواية البكري المعاصر للأحداث في اسم الزعيم الصحراوي الذي صحبه عبد الله ين ياسين فالبكري يقول أنه كان يحيى بن ابراهيم الجدالي وقد أخذ رواية البكري هذه ابن عذارى في البيان المغرب وابن سماك العاملي في الحلل الموشية وابن أبي زرع في الأنيس المطرب وأما رواية القاضي التي تجيء من حيث الترتيب الزمني بعد رواية البكري مباشرة فإنها تجعل ذلك الزعيم هو الجوهر بن سكن الجدالي وتتفق مع هذه الرواية رواية ابي الحسن علي بن كنون قاضي الجماعة بمراكش في أيام يعقوب المنصور الموحدي، وهي منقولة بسندها وتمامها في نهاية الأرب وثمة نقطة أخرى اختلفت فيها الروايات وهي دخول عبد الله بن ياسين إلى الأندلس ، فابن عذارى وبن سماك ذهبا إلى أن عبد الله بن ياسين قد دخل بلاد الأندلس في عهد ملوك الطوائف وأقام بها سبعة أعوام وحصل فيها على علوم كثيرة إلى آخر هذه الرواية الموجودة في البيان والحلل ولكن كتب الطبقات الأندلسية مثل كتاب الصلة لابن

بشكوال والتكملة لابن الأبار وصلة الصلة لابن الزبير لم تذكره في الغرباء الداخلين إلى الأندلس ولسنا ندري هل ذكره ابن عبد الملك في السفر السابع المفقود من الذيل والتكملة أم لا؟ وقد علل الدكتور حسن محمود عدم ذكر الكتب السابقة له بكونها ألفت في زمن الموحدين ، ولانرى أن الأمر كما قال ، فقد ترجمت الكتب المذكورة للقاضي عياض وغيره من رجال العصر المرابطي ومسألة دخول عبد الله بن ياسين إلى الأندلس شبيهة بمسألة دخول المهدي ابن تومرت إلى الأندلس كذلك فقد ذكرتها كتب التاريخ وأغفلتها كتب التراجم .

وهكذا يكون القاضي عياض هو الوحيد من القدماء الذي ترجم لعبد الله بن ياسين، كما قلنا آنفا فإنه لم يذكر من هم شيوخه غير وجاج ولم يشر إلى العلوم التي قد يكون درسها واكتفى بالقول بأنه كان موصوفا بعلم وخير.

وذكر فيما وصف به أن تعزيراته (أي تأديبه بالضرب ونحوه) معروفة ومحفوظة ، يثابر عليها مشيخة المرابطين ويحفظون من فتاويه وأجوبته مالا يعدلون عنه."

ونفهم من هذا أن الرجل كان من فقهاء التربية العملية وأهل الحسبة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكانت له اجتهادات رآها مناسبة لإصلاح حال الجماعة التي دعي إلى تفقيهها وتربيتها.

وأما المادة القديمة حول عبد الله بن ياسين التي توجد في كتب التاريخ والجغرافيا فأولها وأهمها المادة التي دونها أبو عبيد البكري في كتابه المسالك والممالك ، وهي أقدم مادة على الإطلاق عن الشيخ ابن ياسين وقد اعتمد عليها من جاء بعده من المؤرخين والإخباريين ولم يذكر البكري هنا مصدره في أخبار عبد الله بن ياسين ولكنه ذكر في مواضع أخرى أنه كان يستقي

هذه الأخبار من بعض الرسل والسفراء والسفار الواردين على الأندلس وسمى بعضهم .

وقد اشتملت هذه المادة فيما اشتملت على معلومات لم ترد في ترجمة القاضي عياض وذلك كتسمية أم عبد الله ابن ياسين وتعيين بلدة تمامانارت كما وردت عنده أو (تمنارت كما عند الحضيكي في طبقاته والتمنارتي في فوائده) وأخبار عبد الله بن ياسين عند البكري لا تخلو من لمز الأندلسيين فبينما يروي خبرا يدل على صلاح الرجل وورعه وولايته إذا به يقول : "وكان عبد الله مزواجا يتزوج في الشهر عددا منهن ويطلقهن لا يسمع بامرأة حسناء إلا خطبها ولايتجاوز بصدقاتهن أربعة مثاقيل "

بل إن لمز البكري يبدو في الأخبار التي جاءت عنده تحت عنوان "ماشذ فيه عبد الله بن ياسين من الأحكام " وذكر في أولها أنه كان يفرض على أهل الصحراء الثلث من الأموال المختلطة وزعم أن ذلك يطيبها (وعقب على هذا الفقيه الحجوي بما يلي :قلت وقد شطر سيدنا عمر مال بعض عماله) ومن هذه الشواذ حسب البكري أن ابن ياسين كان يضرب من تخلف عن صلاة الجماعة عشرين سوطا ومن فاتته ركعة ضرب خمسا وغير هذا ، قال الفقيه الحجوي في ترجمة لعبد الله بن ياسين في كتابه الفكر السامي.

« وهي إن صحت مسائل سياسية إرهابية أكثر منها أحكاما فقهية لأن الرجل كان يهذب أمة بلغت نهاية ما يتصور من التوحش والجفاء ، فهو معذور في شذوذه ولايزيل التطرف في الإباحة وخلع ربقة النظام الديني إلا التطرف في ضده على أن الرجل نجح نجاحا باهرا في عمله العظيم وهداية تلك الأمة إلى النهج القويم ».

ويصرح البكري ولا يلمح فيقول : "ومما يحفظ من جهل

ابن ياسين أن رجلا اختصم إليه مع تاجر غريب عندهم ، فقال التاجر في بعض مراجعته لخصمه : حاشى لله أن يكون ذلك فأمر عبد الله بضربه وقال : لقد قال كلاما فظيعا وقولا شنيعا يوجب عليه أشد الأدب ، وكان بالحضرة رجل قيرواني فقال لعبد الله : وما تنكر من مقالته والله عز وجل قد ذكر ذلك في كتابه فقال حكاية عن النسوة اللاتي قطعن أيديهن في قصة يوسف "حاشى لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم "فرفع الضرب عن ذلك الرجل.

ومهما يكن من مثل هذا الخبر عند البكري فإنه يظل المصدر الأقدم في أخبار عبد الله بن ياسين ويجيء بعد الأخبار المروية عن أبي الحسن على بن كنون والأخبار التي سجلها أو نقلها ابن عذارى ثم الأخبار التي جمعها ابن أبي زرع وثمة أخبار أخرى في العبر والكامل ونهاية الأرب وصبح الأعشى، وهي أخبار تجتمع في أشياء وينفرد بعضها بأشياء .

وإذا كان أعلام الزركلي خلا من ترجمة عبد الله بن ياسين كما ذكرت في بداية هذه الكلمة فإن أعلام القاضي المراكشي اشتمل على ترجمة لهذا الإمام المصلح الذي وصف في هذا الكتاب بالعالم العلامة الفقيه الرئيس الناصر للدين العامل الناصح الورع ، وقد أشار القاضي في ترجمته إلى بعض ما ورد في القرطاس والحلل وفوائد التمنارتي وطبقات الحضيكي.

وممن ترجموا لعبد الله بن ياسين من المحدثين الفقيه الحجوي وقد ذكرت بعض ما قاله في هذه الترجمة وما جاء فيها أيضا : هذا الرجل من أفضل من يتزين بذكره ويتحلى بترجمته كتابنا هذا لأنه مجدد للإسلام في افريقيا الشمالية ومنها وصل إلي الأندلس وعنه انتشر النور بعد الظلمة التي أحاطت بهذه الأقطار وأدخل الحضارة والحياة الإسلامية العربية إلى سكان

القفار ، وكون إنسانا متمدنا مسلما بشوشا، من قوم كانوا وحوشا ولمّ شَعْثَ الإسلام بعد فتن وافتراق وكون وحدة أماطت الذل والشقاق ، أما أعماله السياسية فهي مبينة على الإختصار في تاريخنا لإفريقيا الشمالية " ويبقى البحث المستفيض والتحليل العميق الذي حرره الدكتور حسن محمود أهم ماكتب عن عبد الله بن ياسين في العصر الحديث ولو نشر على حدة لكان كتابا مستقلا ، وفي مقدمة الباب الثاني الخاص بزعامة عبد الله بن ياسين والممتد من الصفحة المائة إلى الصفحة المائة وخمس وثمانين يقول الأستاذ الدكتور حسن محمود "فمن حقه علينا بل من حقه على التاريخ أن نترجم له ونعرف به ونكشف عن الأحوال التي هيأته ليقوم بذلك الدور الممتاز ونبين الصفات التي توافرت فيه وأهلته لحياة الكفاح والجهاد "

وقد سارت الأستاذة الدكتورة عصمت عبد اللطيف دندش على نهج أستاذها الدكتور حسن محمود فخصت عبد الله بن ياسين بالفصل الثاني من رسالتها : "دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب افريقيا التي هي امتداد لأطروحة الدكتور حسن محمود وقد جعلت عنوان هذا الفصل كما يلي : " عبد الله بن ياسين وظهور المرابطين " ولها اجتهاد معروف في تحديد مكان رباط عبد الله بن ياسين .

حول رباط عبد الله بن ياسين

عصمت عبد اللطيف دندش

دخل عبد الله بن ياسين [1] بلاد صنهاجة في صحبة زعيمها الأمير يحيى بن ابراهيم الجدالي ، بعد عودة الأخير من رحلته بالحج، ليرشد صنهاجة إلى تعاليم الإسلام السليمة ، وكان عبد الله بن ياسين من الفقهاء النابهين ، المتأثرين بمبادئ فقهاء المالكية ،وقد وصفه ابن أبي زرع بأنه كان من أهل الفطنة والدين والتقى والورع والعفة والأدب والسياسة مشاركا في العلوم .[2]
كرس عبد الله بن ياسين نفسه لهداية الملثمين إلى أصول الإسلام ، وتفقيههم في أمور دينهم ، وأخذ يرسم لنفسه النهج الذي يحقق الأهداف التي حالف الأمير يحيى بن ابراهيم عليها،وهي تأليف قلوب الملثمين ،وجمع شمل القبائل المتنافرة على أسس من الدين الصحيح ، والخلق الكريم حتى لا يكتب لها أن تتفرق ، واستطاع بفضل معرفته اللهجات البربرية ، ومقدرته الخطابية وقدرته على التأثير أن يجتذب إليه الطلبة من كل فج ، فكانوا يشدون الرحال إليه ليستمعوا إلى دروسه. [3]
ويبدو أن عبد الله بن ياسين أخذ الكثير من أفكار معلمه

---

1 - هو عبد الله بن ياسين بن مكوك بن علي صاحب دعوة المرابطين ـ ذكر بعض المؤرخين أنه ينتسب إلى قبيلة جزولة الضاربة في أقصى المغرب قرب جبال درن ، ولد في قرية تياماناوت في طرف صحراء مدينة غانة ، أي في أحواز مدينة أودغشت ـ ويرجح الدكتور حسن محمود نسبته إلى قبيلة جدالة التي تضرب قرب منطقة السنغال وتوغل جنوبا حتى منحنى النيجر ،وأن من السهل أن يحرف الرواة إسم الجدالى إلى الجذالى أو الجزولي.
البكري : المغرب ص 165 ، القاضي عياض : ترتيب المدارك ج 4 ص 180 ، ابن خلدون العبر ج 6 ص 314 ، حسن محمود) د (قيام دولة المرابطين ص 113.
2 - ابن أبي زرع : روض القرطاس ص 124
3 - الحلل الموشية ص 9

الشيخ وجاج (1) ومدرسته كأساس لتعليمه ، فضلا عن أفكاره التي اكتسبها أثناء إقامته القصيرة في الأندلس ، وقد اضطرته ظروف الصحراء وعادات أهلها البدو إلى تعديل هذه الأسس لكي تلائم هذا المجتمع (2)، فكان يتدرج بهم من فهم الإسلام من البسيط إلى المعقد إلى أن نزل إلى مستوى أفهامهم ليلقنهم المبادئ الصحيحة للدين ، حتى إذا تمكن من نفوسهم ، وأقبلوا عليه بعقولهم، أخذ يفسر لهم القرآن ويروي لهم الحديث (3) واستطاع بفضل ذكائه وخبرته أن ينفذ إلى قلوب العامة ، فأقبلوا عليه وحفظوا فتاويه وأجوبته ، وهناك احتمال كبير أن هذه الأحكام سواء كانت شفاهية أو مكتوبة، كانت باللغة البربرية وليست بالعربية (4).

غير عبد الله بن ياسين كثيرا من العادات السيئة التي كانت سائدة في المنطقة ، فأحيا الروح الدينية وأقام حدود الإسلام، وعمل على نشر لواء المساواة بين الناس وتعرضت دعوة عبد الله بن ياسين للمقاومة من أهل الشر والفساد وحمل لواء هذه المقاومة أحد الفقهاء وهو الجوهر ابن سكم مع رجلين من كبرائهم يقال لأحدهم أيار والآخر أينتكوا ، فعزلوه عن الرأي والمشورة واستعادوا منه بيت مالهم، وطردوه وهدموا داره ، وانتهبوا ما فيها من أثاث(5)

اختلف المؤرخون في تحديد وقت هذه الفتنة ، فالبعض يرى أنها حدثت أيام الأمير ابن ابراهيم الجدالي، عندما شدد عبد الله بن

---

1 - وجاج بن زللو اللمطي فقيه المالكة في السوس الأقصى ، من تلاميذ الشيخ أبو عمران الفاسي شيخ المذهب المالكي في القيروان في ذلك الوقت ،وقد رحل وجاج إلي القيروان وأخذ العلم عنه ، ثم عاد إلى سوس فبنى دارا سماها دار المرابطين لطلبة العلم وقراء القران ، وكان المصامدة يزورونه ويتبركون بدعائه.
التادلي : التشوف إلى رجال التصوف ص 66

2 - NORRIS H.T NEWEVIDENCE ON THE LIFE OF ABDELLAH B. YASSIN P 263

3 - الحلل الموشية ص 9

4 - NORRIS H.T OP CIT P 299

5 - البكري : المصدر السابق ص 165 ، 166

ياسين على الملثمين في ترك المنكرات (1).

ويشير ابن الأثير إلى أن سبب الثورة لم تكن لشدة عبد الله بن ياسين فقط ، بل لأنه أفتى بقتل الأمير يحيى بن ابراهيم نفسه (2) بينما أشار فريق آخر من المؤرخين إلى أن هذه الثورة كانت في عهد الأمير يحيى بن عمر اللمتوني ، الذي اختاره عبد الله بن ياسين، خليفة للأمير يحيى بن ابراهيم الجدالي بعد وفاته (3).

ومما يرجح هذا الرأي أن عبد الله بن ياسين نزل أول ما نزل في جدالة مع زعيمها، فهو علاوة على أنه رجل الدين الذي يتبرك به الناس فهو ضيف زعيمهم ، وعادة قبائل الصحراء أن يكون الضيف في حمى ورعاية المضيف، وعلى ذلك فإنه بالرغم من تذمر بعض الناس من قسوة تعاليم عبد الله بن ياسين إلا أنهم كانوا يحسبون حساب زعامة يحيى بن ابراهيم وحمايته له فلما مات يحيى بن ابراهيم أصبح عبد الله بن ياسين بلا سند، وفقد الحماية التي كان يبسطها عليه زعيم جدالة ، ورئيس الحلف الصنهاجي ،وأصبح مكروها خاصة أنه اختار يحيى ابن عمر اللمتوني خلفا ليحيى بن ابراهيم الجدالي، فقد نقل بذلك الزعامة من جدالة إلى لمتونة،إذ كان عبد الله بن ياسين مقتنعا بأن المستقبل لدعوته سيكون مع لمتونة لموقعها الجغرافي الممتاز في موريتانيا ادرار، ولشجاعتهم الحربية ، ولخضوع يحيى ابن عمر وعائلته لأوامره وتعاليمه (4).

وتختلف الآراء أيضا في الإتجاه الذي اتخذه عبد الله بن

---

1 - إبن أبي زرع : المصدر السابق ص 124 ، جامع تواريخ فاس ص 28 ، الناصري : الإستقصا ج 2 ص8 ، حسن محمود "د "المرجع السابق. ص : 122

2 - ابن الاثير : الكامل ج 8 ص 15

3 - البكري : المصدر السابق ص 165 ، ابن عذارى : البيان المغرب ج 4 ص 9 ، ابن خلدون : المصدر السابق ص 314 ، القلقشادي :صبح الأعشى ج 5 ص 189
BOVILL, E. W. THE GILDEN TRADE OF THE MOORS P.71

4 - الحلل الموشية ص 10 NORRIS H.T.OP.CIT.P.261

ياسين بعد طرده إذ يرى بعض المؤرخين أنه عاد إلى أستاذه فقيه السوس وجاج [1]

وقيل أنه كتب إليه ولم يتوجه بنفسه، فأعلم الشيخ بما جرى في جدالة وبين له أمره معهم، فكتب الشيخ وجاج رسالة إلى بعض شيوخ جدالة "يعاتبهم على ما صدر منهم، وما بلغه من فعل المشغبين عليه ، وهو مقيم بينهم ، وعاتبهم عتابا شديدا، لكونهم انقادوا إليه ،ثم انتقدوا ما شيعه عدوه عليه منهم [2]" ولما وصل الشيخ وجاج جواب رسالته هذه من أشياخ جدالة يعتذرون عن تقصيرهم في حق عبد الله بن ياسين، أمره بالرجوع إلى تلك القبائل الصحراوية،وكتب إلى شيوخهم يعلمهم أن من خالف عبد الله بن ياسين فقد خالف الجماعة،وأن دمه هدر [3].

رباط عبد الله بن ياسين

رأى عبد الله بن ياسين أن يرحل إلى بلاد السودان ، ولكن الأمير يحيى بن عمر تمسك به ، وأشار عليه بمكان بعيد ، حيث يمكنه إعتزال المشغبين والتعبد فيه ، فوافقه على ذلك الشيخ الفقيه، خاصة أن هذا الرأي وجد صدى في نفسه الميالة إلى حياة الربط وتعوده الحياة فيها [4]، إذ أنه أخذ العلم وتفقه في الدين في رباط وجاج بن زللو اللمطي ، وقد لعب هذا الرباط دورا هاما في حياة عبد الله بن ياسين ، فرحب بما عرضه عليه الأمير يحيى بن عمر من اتخاذ مكان بعيد للعبادة .

اختلف المؤرخون في تحديد الموضع الذي لجأ إليه ابن ياسين وأقام فيه رباطه ، فيرى فريق منهم أنه جزيرة في البحر، يسهل

---

1 - البكري المصدر السابق ص : 166، ابن عذارى المصدر السابق ص : 9

2 - ابن عذارى : المصدر السابق ، نفس الصفحة

3 - البكري : المصدر السابق ، نفس الصفحة ، ابن عذارى : نفس الصفحة

4 - إبن أبي زرع : المصدر السابق ص 124 ، الناصري : المرجع السابق ص8 .

الخوض في الماء للوصول إليها إذا كان الجزر ، وتركب إليها الزوارق إذا كان المد .

وبعضهم يذكر كلمة البحر الغربي (المحيط الأطلنطي) والبعض الآخر يذكر كلمة "البحر" فقط ، كما يذكرون أن الأمير يحيى بن عمر اللمتوني هو الذي أشار على ابن ياسين بمكان هذه الجزيرة (1)

وليس من المعقول أن الأمير يحيى بن عمر، وهو من قبيلة لمتونة يختار جزيرة في البحر المحيط في مضارب قبيلة جدالة التي كانت تشغل المنطقة المطلة على ساحل المحيط ، فضلا عن أنها هي التي قامت بالثورة على ابن ياسين وحاولت الفتك به .

ويرى الدكتور حسين مؤنس أن رباط ابن ياسين كان على حدود الصحراء فيما يلي تارودانت إلى الجنوب (2) معتمدا على ما ذكره كل من البكري ، وصاحب الاستبصار ، من أنه يوجد على مصب وادي ماسة رباط مشهور ومقصود (3).

إلا أننا نستبعد هذا الرأي ، لأنه يتنافى مع ما ذكره المؤرخون من أن عبد الله بن ياسين اتجه إلى السودان ولم يذهب إلى الشمال، كما أن البكري وهو معاصر للفترة الأولى من عصر المرابطين لايمكن أن تفوته الإشارة إلى رباط ماسة على أنه رباط ابن ياسين.

بينما أشار نورس NORRIS إلى أن رباط ابن ياسين ربما يكون في ارتننى واقترح مكانا لهذه المدينة بين مدينة تشيت ومدينة والاتا في منخفض حيث يوجد الماء ، وتنمو الأدغال، ولكن عاد واستبعد هذا الرأي على أساس أن أرتننى هي المدينة

---

1 - إبن أبي زرع :المصدر السابق ص 124 ابن الخطيب :القسم الثالث من أعمال الاعلام ص 277 ،
الناصري : المصدر السابق ص 8
DE LA CHAPELLE , MOORS ." ENCY OF ISLAM "VO, 13 ,P 501
2 - حسين المؤنس)د : (مقدمة رياض النفوس ص 26 م
3 - البكري : المصدر السابق ،صاحب الاستبصار ص 212

التي أنشأها عبـد الله بن ياسين أول نزوله في أرض جدالة ، وعلى هذا عـاد وأشار إلى أنهـا ربما تكون مكان مـتحـرك في الصحـراء وانفصلت إلى جزيرة ساحلية (1).

واشـار ابن خلدون إلى موضع الربـاط على ربوة يحيط بهـا النيل من جملتـها « ضحضـاحا في الصيف ، وغمرا فـي الشتاء ، فتعود جزرا متقطعة » (2).

وفسر فريق من المؤرخـين ما قصده ابن خلدون من " النيل " أنه نهر السنغال، وأن هذه الربوة أو الجزيرة في مصب السنغال الأدنى (3).

وعـزز الدكـتـور حـسن مـحمـود هذا الرأي على أسـاس أن الرباط لايبنى عـادة إلا في المناطق التي تـتعرض للغـزو ، ويتطلب حشـد القوى للجـهاد ، ولذلك لا يوجـد ثمة خطر يتـهددهـم من البحـر بينما مـمالك الزنوج الواقـعة في جنوب السنغـال هي التي كانت تهددهم ، فـاختار مصب السنغال مكـانا لمرابطته من أجل الجـهـاد ونشـر الإسـلام ، والحـيلولة بينهم ، وبـين الإغـارة على مضارب الملثمين ، كما أن الحياة في الجزيرة الواقعة في المحيط والتي أشـار إليـها بـعض المؤرخـين تكاد تكـون شاقـة لقلة مـوارد الماء، وضـيق رقعتـها فـلا يمكن استيـعاب أعداد المـرابطين التي تضخمت ، وبلغت أكـثر من ألف مرابط ، بينما الحـياة في الجزر الواقعة في مصـب السنغال ميسرة ، لوفرة المـياه والنبات ، علاوة على أن الأطراف الجنوبيـة لديار جـدالة كانت تمـتد حـتى تدرك حوض السنغال ، وبذلك يكـون ظهر العصبة المـرابطة في حماية هذه القبيلة إذا ما فكر الزنوج في مهاجمتها (4)

1 - 8NORRIS .H,T OP .CIT P 25

2 - ابن خلدون :المصدر السابق ص 374
COLVIN LUCIEN,NOTRE SUR LE MOT RIBAT P95

3 - حسن محمود) د : (المرجع السابق ص 126
DE LA FOSSE . M, SENEGAL , " ENCY OF ISLAM " VOL . IV.P225
CORNEVIN , ROBERT , HISTOIRE DE L'AFRIQUE . P III

4 - حسن محمود) د : (المرجع السابق ص 126

ولكن عندما خرج عبد الله بن ياسين، واختار موضع رباطه،لم يزد صحبه عن تسعة أشخاص .فكيف له ان يجازف وهو في هذا العدد الصغير وأن يقيم في حوض السنغال الذي كانت تسيطر عليه مماليك السودان وقبيلة جدالة الثائرة عليه ؟ كما أن عبد الله بن ياسين عندما فكر في العزلة وإنشاء الرباط لم يكن في ذهنه في ذلك الوقت فكرة الحرب ،أو أن عدد مريديه سوف يتكاثر حتى يبلغ الألف مرابط بدليل أنه لم يفكر في الخروج بدعوته من الرباط إلا بعد أن كثر مريدوه وتأكد من طاعتهم له ، وحسن إسلامهم ، فكان كل همه في أول الأمر ، هو اختيار مكان يتعبد فيه هو وصحبه ، ويرجح محمد عبد الله عنان أن رباط ابن ياسين في جزيرة في منحنى نهر النيجر على مقربة من تمبكت [1].

وأرى أن الآراء التي رجحت أن المقصود بـ"النيل " ربما يكون السنغال أو نهر النيجر بعيدة عما قصده ابن خلدون ، إذ أنه ذكر أن هذا النيل "ضحضاحا في الصيف ، وغمرا في الشتاء "[2] وهذا لايتفق مع مائية نهري السنغال والنيجر ، إذ أن هذه الأنهار تفيض في الصيف .

ولذا فإنه من الأرجح أن رباط عبد الله بن ياسين كان في أحد الأودية على حافة الصحراء الجنوبية من مضارب لمتونة ، إذ المعروف أن هذه الأودية تغمرها المياه شتاء وينتشر بها الجفاف صيفا ، وهو ما يتفق مع ابن خلدون (ضحضاحا في الصيف وغمرا في الشتاء) وإن كان من الصعب تحديد أي هذه الأودية أقيم به رباط بن ياسين.

---

1 - محمد بن عبد الله عنان :دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي ص302

2 - ابن خلدون :المصدر السابق ص 274

الحياة في رباط ابن ياسين

كـان المؤسـسـون للرباط تسعـة أشـخاص عـاشـرهم عبـد الله بن ياسين، اثنان من لمتـونة همـا الأمير يحيى بن عـمر ، وأخـوه أبو بكر بن عمر[1] وسبعة من جدالة [2] وقد احتذى عبد الله بن ياسين حين بنى رباطه حذو ربط المغرب وافريقية في طريقة بناء الرباط ، وفي نمط الحياة فيه.

وضع عـبد الله بـن ياسين نظامـا خـاصا للـقبـول في رباطه ، ووضع قـواعـد تطبق داخل الرباط ، يسـيـر عليهـا الجـمـيع ، فكان القبول مـعلقا على امتحان وفتـرة مراقبة للتأكد من اسـتعداد الراغب في الانخراط في سلك الرباط لقبول نظامه ، فـإذا توفر له الاستعداد قـبل عضـوا في الرباط ، فـيسلم إسـلاما جـديدا وتقـام عليه حـدود الذنب التي ارتكبها قبل دخول الرباط [3] لتحريره من فكرة الذنوب.

واعتمد رجال الرباط على أنفـسهم في الحصول على كل ما يحتاجونه عن طريق صيد مايحتاجون إليه من البر والبحر ، كما كانوا يعدون طعامهم بأنفسـهم مع الاكتفاء في الطعام بأقل القليل وبالخشن من الثيـاب فقد كانت حيـاتهم بسيطة متواضـعة خشنة فهم لايبتغون غير الدار الآخرة .

أما العبـادات فقد كانت مـقصورة على صلاة الجـماعة في الصلوات الخـمس ، وعلى صـلاة القـضـاء الإجـبـارية ، لتـحـرير النفـوس من فكرة التـقصيـر وقد وضـعت للرباط عـقـوبات على مخالفة ذلك ، فمن فاتته ركـعة ضرب خمسا ومن تخلف ضرب عـشـرين وكـان الخشـوع الصـامت إلزامـيـا فـمن رفع صـوته في المسجد ضرب على قدر ما يراه الضارب له صلاحا [5]

---

1 - ابن خلدون :نفس المصدر ـ نفس الصفحة

2 - ابن أبي زرع :المصدر السابق ص 125 ابن الخطيب :المصدر السابق ص 227

3 - كان يضرب حد الزاني مائة سوط ، وحد المفتري ثمانين سوطا ، وحد الشارب مثلها وربما زيد على ذلك البكري : المصدر السابق ص 169

4 - حسن محمود المرجع السابق ص 143 .محمد عبد الهادي شعيرة) د (المرابطون تاريخهم السياسي ص 37

5 - البكري : المصدر السابق ص 169 محمد عبد الهادي شعيرة :المرجع السابق ص 37،38

وكان عبد الله بن يسن هو الذي "يعلمهم الكتاب والسنة ، والوضوء والصلاة والزكاة وما فرض الله عليهم من ذلك "(1).

ويبدو أن عبد الله بن ياسين كان يعلمهم ذلك باللغة البربرية(2) ومن الطبيعي أن يكون تصريف شؤون الرباط طبقا لأحكام المذهب المالكي الذي كان يتبعه عبد الله بن ياسين.

ولم تمض غير ثلاثة أشهر حتى تسامع الناس بأخبار ابن يسن ، وأخبار أهل الرباط فتوافدوا عليه ، فأخذ ابن ياسين يقرئهم القرآن ويفقههم في الدين ويرغبهم في ثواب الله تعالى، حتى حبه تمكن من قلوبهم (3).

كذلك أرسل عبد الله بن ياسين البعوث إلى القبائل لترغيب الناس في مذهب أهل الرباط حتى اجتمع له من تلاميذه نحو ألف رجل من أشراف صنهاجة (4) فلما كثر مريدوه على هذا النحو ، رأى بن ياسين أن يخرج بدعوته إلى خارج الرباط فبعد أن أعد أنصاره إعدادا خاصا وتأكد من استعدادهم لحمل مسؤولية الجهاد ، أمرهم بجهاد من خالفهم من قبائلهم ، ودعوة هذه القبائل للإسلام.

ذهب هؤلاء الدعاة المجاهدين كل إلى أهله وعشيرته ، يعظهم وينذرهم ، فلما لم ينتهوا عما هم فيه من ضلال ، خرج عبد الله بن ياسين على رأسهم مجاهدا ، وبدأ بقبيلة جدالة عام 434هـ1042م) (5) فغزاهم في ثلاثة آلاف رجل من المجاهدين وهزمهم ، وقتل عددا كبيرا وأسلم الباقون إسلاما جديدا ، وأدوا

---

1 - القاضي عياض :المصدر السابق ص 781 ـ ابن أبي زرع :المصدر السابق ص 125
2 - NORRIS .H.TOP, CIT, P.264
3 - ابن أبي زرع :المصدر السابق ص 125
4 - TRIMINGHAM . J.S.A HISTORY OF ISLAM IN WEST AFRICA P 23
5 - ذكر ابن أبي زرع) ص 125 (أنها وقعت عام 434 هـ واتفق معه ترمنجهام في كتابه A HISTORY OF ISLAM IN WEST AFRICA P 24
بينما يذكر ابن الخطيب ص 228 (أنها وقعت عام 446 هـ 1054)م

جميع فروض الله عليهم.

كان لهذا النصر صدى كبيرا بين القبائل في الصحراء ، فسارعت بقية لمتونة إلى الدخول في الدعوة الجديدة ، كما سارعت قبائل مسوفة ولمطة إلى الانضمام للنظام الجديد ، فقد تجاوز الأمر حدود الشخصية القبلية ، وأصبح دعوة دينية ونداء إلي دعوة الحق وإلى نظام سياسي يقوم به الدين على نمط غير الأنماط القبلية ، وبذلك انطلقت من هذا الرباط دعوة المرابطين لتكون فيما بعد دولة إسلامية قوية ، توحد ما بين المغرب والأندلس.

ملاحظات منهجية حول أصول الحركة المرابطية

الأستاذ محمد المغراوي

مقدمة

من المعروف بين المختصين أن ضياع مجموعة من المصادر الرئيسية لتاريخ المرابطين (1) قد أثر سلبا على معرفتنا بتفاصيل مهمة في تاريخهم، وخاصة ما يهم المرحلة المبكرة لحركتهم .وإذا كان بعض المؤرخين الأندلسيين مثل العالم اللغوي والمؤرخ أبي عبيد البكري) تـ عام 487 هـ (صاحب كتاب "المسالك والممالك "وصالح بن عبد الحليم)كان حيا عام 726 هـ (صاحب كتاب "الأنيس المطرب بروض القرطاس " قد احتفظ لنا بمعلومات قيمة عن بداية المرابطين ، بالإضافة طبعا إلى إفادات المؤرخ المغربي ابن عذارى المراكش) كان حيا في 726 هـ ، فإن هذه الأخبار والروايات رغم أهميتها البالغة غير كافية لاستكمال الصورة عن

---

1 - من بين هذه المصادر "كتاب التاريخ "للقاضي عياض)تـ 544هـ (، فقد قال في ترجمة عبد الله بن ياسين في ترتيب المدارك" :فقد بسطنا أخباره في كتاب التاريخ . "المدارك .طبعة وزارة الأوقاف ، ج8 .ص 81 . وكتاب "المقياس في أخبار المغرب والأندلس وفاس "لأبي مروان عبد الملك الوراق)كان حيا عام 578 هـ (الذي نقلت عنه تفاصيل هامة عن المرابطين في مصادر متعددة.وكتاب "المقتبس في أخبار المغرب وفاس والأندلس "لأبي عبد الله محمد بن حمادة البرنسي السبتي تلميذ القاضي عياض ثم الكتاب الهام "الأنوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية "لأبي بكر ابن الصيرفي)تـ 570 هـ (والذي تكرر النقل عنه في عدة مصادر ، ويظهر أنه استقى معلوماته من مصادر متعددة منها الرواية عن شيوخ الملثمين لأنه كان كاتبا للأمير أبي محمد تاشفين بغرناطة .ثم كتاب "أنساب البربر وملوكهم (مفاخر البربر طبعة مدريد 6 .68 .187 "لأبي عبد الله محمد بن أبي المجد المغيلي)ق 6هـ (والذي يظهر القول عنه عن أهمية معلوماته حول صنهاجة خاصة بكتاب مفاخر البربر .ثم كتاب 'النبذ المحتاجة في أخبار صنهاجة "لأبي عبد الله محمد بن علي بن حمادة الصنهاجي) تـ عام 628 هـ (وقد خصصه للتأريخ لصنهاجة الشمال (دليل مؤرخ المغرب الأقصى 1:135) وكتب "أنساب البربر "لكهلان بن لوا الأوربي ، وتابعه ابن سليمان المطماطي ، وهاني بن مصدور الكومي الطريسي) ابن خلدون : العبر ، 6 235 :ـ 253 (وذكر السخاوي في "الإعلان بالتوبيخ "كتابيهما "صنهاجة "و "لمتونة "ولم يذكر مؤلفيهما ص 635 و640.

2 - مثلا حول مسلمة إسقاط المرابطين لمملكة غانة ، راجع كتاب أحمد الشكري " :مملكة غانة وعلاقتها بالحركة المرابطية "منشورات معهد الدراسات الإفريقية ، الرباط 1997، ص 77-97.

هذه المرحلة الغامضة.لذلك يظل أمل المؤرخين معقودا على اكتشاف بعض المصادر الرئيسية المفقودة علها تساعد في إعادة النظر في بعض المسلمات والأحكام، أو في تصحيح بعض الأخطاء أو في ترتيب بعض الأحداث لإعادة تحليل وفهم نسق تاريخ المرابطين في حدود معينة.

وفي انتظار هذه المفاجأة التي قد يجود الزمن بها أو لا يجود، فإن البحث في هذه المرحلة المبكرة يفرض مجموعة من الاحتياطات المنهجية لتجاوز الصعوبات التي تفرضها المادة المتوفرة، أو التي تتركها الأسئلة المعلقة أو المتجددة.

1 - أصول التجربة المرابطية

يضعنا التعمق في دراسة التجربة المرابطية أمام أهمية الكشف عن السياقات المختلفة التي يمكن أن تفهم التجربة في ضوئها ومنها :

1 ـ سياق تخلف العصبية الصنهاجية

يعود إسلام قبائل الملثمين إلى مرحلة مبكرة، وقد ساهمت في تحولهم إلى الإسلام محاولات الولاة الأمويين والإمارات الخارجية والإدريسية بتمدلت التي أسفرت عن توغل الإسلام بطريقة سلمية في الغالب إلى أبعد مجال جغرافي وهو مجال قبيلة كدالة ، وهذه الإشكالية لا يمكن الجزم فيها برأي نهائي، وقد سمح إسلام هذه القبائل لها بتكوين أحلاف يعود أقدمها إلى القرن الهجري الثالث ، ولكن أحلاف الملثمين كانت تصطدم في الغالب بصعوبات لا تكشف عنها المصادر كانت تؤدي إلى تحللها، وكان آخر حلف هو الذي قام على يد الأمير محمد بن تيفاوت اللمتوني، المعروف بتارشني المتوفى عام 425 هـ / 1034م في إحدى حملاته الجهادية ، فانتقلت زعامة الحلف إلى

صهره يحيى بن ابراهيم الكدالي .ولاشك أن انتقال الزعامة بين القبائل المكونة للحلف يصلح اعتباره مؤشرا على تجاوز الحلف الصنهاجي لبعض العوائق الداخلية على الأقل ، ويخلق لديه حركية ومرونة داخليتين كانت المراحل اللاحقة في حاجة ماسة إليهما، وإنه كانت بوادر انفراد لمتونة بالزعامة قد أصبحت واضحة خلال هذا الحلف .ويمكن أن نضيف إلى عوامل قوة الحلف الصنهاجي الأخير إضافة إلى التماسك الداخلي، مسألة الزعامة القبلية التي ربما كان عامل الصلاح والتدبير عنصر نجاح لها في وسط شديد الحركية والتغير، وفي هذا الإتجاه نفهم رحلة حج يحيى بن ابراهيم عام 427 هـ التي كانت استكمالا لبعض عناصر الزعامة وسيرا على تقليد من سبقه، ونلاحظ أن رحلة يحيى بن ابراهيم رغم أهميتها كحدث محوري، لانستطيع أن نتعمق في دراستها لمحدودية المعلومات ، ولكن استكمال وجمع عناصر أخرى غير حدثية قد يؤدي إلى النتيجة المطلوبة.

2 – سياق تحول الطريق نحو الغرب

خلق اجتياح قبائل بني هلال وسليم لصعيد مصر أواخر القرن الرابع،ولإفريقية بعد ذلك واقعا جديدا أثر سلبا على ازدهار الطريق التجارية التي كانت تربط السودان الغربي بمصر وإفريقية ، فكانت نتيجته المباشرة انتعاش الطريق الغربية الرابطة بين أودغشت وسجلماسة عبر محورين ساحلي وداخلي، وقد عزز هذا التغير مكانة القبائل اللمتونية نظرا للإستفادة المباشرة التي حصلت لها من حيوية هذا الطريق ، ولا نشك أن هذا العنصر كان مشجعا على تماسك الحلف الصنهاجي وتوثبه للعب دور أبعد مكنه من استغلال الواقع الجديد.

3 ـ سياق انتصار المذاهب السنية

لا نستطيع أن نماشي بعض الآراء القائلة بتخطيط يحيى بن

ابراهيم للقاء أبي عمران الفاسي لكننا نسارع إلى القول بأن دخول شيخ المالكية بالغرب الإسلامي أبي عمران الفاسي)تـ 430 هـ (نزيل القيروان في مسلسل الأحداث وإمساكه ببعض خيوطه يدل على وجود مخطط سني تنفده شبكة من الفقهاء الموزعين على المراكز الحساسة في الغرب الإسلامي لتعزيز موقف أهل السنة ضد النحل الأخرى وهي أساسا التشيع في إفريقية والنحلة البرغواطية في المغرب .وهذا في حد ذاته جزء من استراتيجية أوسع إلتقت فيها المذاهب السنية بالمذهب الأشعري لمحاربة المذهب الشيعي والإعتزالي ، وتهجين المذهب الخارجي وكذا النحل المختلفة ، وقد لعب أشعرية بغداد دورا حاسما في هذه الإستراتيجية التي ظهرت نتائجها بوضوح في إرغام فقهاء إفريقية الأمراء الأغالبة على تصفية الإرث الشيعي والتحول رسميا نحو المذهب السني المالكي.

لقد انخرط فقهاء المغرب في هذه المعركة بعفوية وحماس وانقسمت أدوارهم بحسب البنيات المغربية فتخصص أهل الأندلس في التنظيرالفقهي وترسيخ المذهب الأشعري ، بينما تخصص فقهاء المغرب في تكوين نماذج الفقهاء الزهاد العمليين ، في الوقت الذي ظل فقهاء إفريقية صلة الوصل بين جناحي المجال السني بين قرطبة وفاس وبغداد .

لقد صارت حركة المرابطين منذ البداية في اتجاه واضح مخطط كان مطلوبا فيه من الزعيم القبلي أن يسلم زمام عصبيته للفقيه السني لكي يستغل هذه العصبية الحية المتأججة في الدفاع عن مشروع مصيري ، من هنا افترقت آمال الفقيه السني مع شعبة من العصبية الصنهاجية ، فبينما فضل الفقيه عبد الله بن ياسين بعد جولات في الصحراء أن يتوجه شمالا لارتباط أكثر بالقضية ، نجد أن قبيلة كدالة لم تستوعب المشروع جيدا ففضلت أن

تتوجه جنوبا وشرقا لإتمام معاركها التقليدية .لقد زاول عبد الله بن ياسين عمله بذهاء فطري لتعزيز مشروعه السني حيث ظل على ارتباط بشيخه وجاج بن زلو اللمطي ، ولم يغره الإنتصار وطاعة القبائل له على تكوين كيان مستقل به بعيدا عن رقابة فقهاء المغرب ومع ذلك كان يرى أن انتصاره مشروط بانتصارهم من هنا خص فقهاء السوس الأقصى بإرسال الزكوات إليهم سنويا كما ضمن لحركته استقلالا ماليا حينما فرض أخذ 1/3 الأموال المختلطة لتطهيرها ، وتحمل في ذلك لوم الفقهاء الذين سطروا ذلك ضمن " مَا شَذَّ فيه ابن ياسين من الأحكام "على قول البكري، ولم يفته أن يعزز مكانة فقهاء سجلماسة حينما منحهم 1/5 الغنائم التي غنمها المرابطون منذ فتحهم لها .

وأعتبر أن نجاح عبد الله بن ياسين لا يكمن فقط في انتصار حركته من بعده عسكريا وسياسيا ، ولكن في احتفاظها بمشروعه ودفاعها عن المذهب السني المالكي بكفاءة واقتدار .

4 - سياق الإنحلال السياسي في مغرب القرن 5 هـ

يمكن أخذ القرن 5 هـ في المغرب كنموذج لما سماه كوتيي GOUTIER بالقرون المظلمة لتاريخ المغرب مع اختلافنا معه في باقي عناصر تحليله واكتفائنا باستعارة المصطلح فقط، وقد تراوحت الكيانات السياسية التي تعايشت في النصف الأول من هذا القرن بين كيانات سياسية فارغة من أي محتوى فكري كالإمارات الزناتية في فاس وسجلماسة، وبين كيانات ذات انتماء عقدي لنحلة لم تتمكن حتى من تجاوز مجالها القبلي وهي النحلة البرغواطية الملتبسة الأصول والهوية ، والتي استطاعت جهود الفقهاء المرابطين محاصرتها والتأليب ضدها ،أو إمارة محبطة بفعل تقلص التشيع في الغرب الإسلامي وانكماشها على ذاتها في حدود مدينة تردنت وهي إمارة الشيعة البجلية.

لقد لعب الفقهاء في كل من سوس وسجلماسة دورا حيويا في تحفيز الحركة الصاعدة على اغتنام الفرصة بالقضاء على الظلم والفساد بدل صرف الجهود في غزو وتأديب القبائل الصنهاجية والسودانية ، وقد تصرف المرابطون في هذه المرحلة ايضا بوعي فطري حينما فضلوا البدء بغزو سجماسة لتأكيد سيطرتهم على الطريق الرئيسية لتجارة السودان وتحريرهم لها وبالتالي الحصول على ضمانة للتغلب على باقي أجزاء مشروع فتح المغرب الأقصى.

5 ـ سياق الوحدة الإسلامية تحت لواء العباسيين

إذا كان إعلان الخلافة الأموية بالأندلس بعد مرحلة اكتفى فيها الأمويون بنظام الإمارة قد اعتبر تحديا سياسيا للخلافة العباسية وتنازعا على المشروعية داخل المنظومة السنية،فإن إعلان الخلافة الفاطمية في وسط الجسم الإسلامي وعلى مقربة من الحرمين الشريفين قد شكل قطيعة مع الخلافة العباسية وتهديدا بالقضاء على الكيان السني ككل، لهذا عمل فقهاء أهل السنة على الربط بين مصير مذاهبهم ومصير الخلافة العباسية، لذلك لم يستبعد بعض المؤرخين المعاصرين اعتبار أبي عمران الفاسي نموذجا للدعاة العباسيين، ونزداد اقتناعا بهذه الأطروحة في حدودها الدنيا حينما نستعرض ما آل إليه الأمر على عهد أبي بكر بن عمر الذي سارع إلى إعلان الولاء للخلافة العباسية رسميا عن طريق السكة التي حملت منذ عهد أبي بكر إلى عهد تاشفين بن علي لقب عبد الله العباسي أمير المؤمنين ، وأفترض أن هذه الخطوة كانت من تعاليم الإمام عبد الله بن ياسين إلى مواريه المطيع أبي بكر بن عمر الرجل الذي استوعب جيدا عمق المشروع .

وإذا كانت الخلافة العباسية قد عجزت عن مواجهة

تحديات الخلافة الفاطمية الإسماعيلية فإنها بفضل الفقهاء ستحتمي بجهود السلطنات الناشئة على أطراف العالم الإسلامي والمنخرطة في مشروع إنقاذ العالم السني خلافة ومذاهب من التهديد الشيعي، وهنا تتشابه أدوار كل من السلاجقة في المشرق والمرابطين في المغرب.

إن العناصر السابقة وعناصر أخرى لم يسمح الوقت بإثارتها نرى من الضروري تطويرها للإجابة على بعض إشكالات أصول الحركة المرابطية ، ولا أعتقد أن الإكتفاء بتحليل الموضوع ضمن المجال الجغرافي للغرب الإسلامي وحده كاف لاستيعاب أبعاد هذه الظاهرة التاريخية المتميزة التي أعتبر أنها شكلت فرصة لمساهمة كل بيئات الغرب الإسلامي من الصحراء إلى إفريقية مرورا بالمغرب الأقصى في إنقاذ العالم السني ، دون أن ندخل في عين الإعتبار طبعا الأدوار الجبارة التي لعبها المرابطون في مرحلة الدولة.

ومع هذا تظل لدينا أسئلة لازلنا نبحث لها بين المصادر والدراسات عن عناصر الإجابة ، منها مثلا :

- لماذا لعبت قبيلة لمتونة الدور الأساسي في الحركة المرابطية، وابتعدت قبيلة كدالة ، بينما اكتفت مسوفة ولمطة بأدوار ثانوية ؟

- كيف نفهم جدلية العلاقة بين تطور مبادئ الحركة المرابطية وتراكم تجربتها الحركية ؟

- لماذا لم تنتشر الأشعرية بين المرابطين ، مع أنها كانت من عناصر المشروع السني في القرن الخامس ؟

وأسئلة أخرى لا نستطيع بالوسائل المتوفرة حاليا الإجابة عنها ، لكن نرى أنه من الضروري أن نكون واعين بها ونحن نمارس البحث في أصول الحركة المرابطية .

المجال الجغرافي والصراع البرغواطي الياسيني

الأستاذ مولود عشاق

من الصعوبة بمكان إستقراء تاريخ الحركة البرغواطية ، واستقصاء الآليات المتحكمة في صيرورة إحداثياتها ، وحكم ذلك يرجع في المقام الأول إلى الإعتبارات التالية :

- نذرة المصادر والمدونات التاريخية.
- إحجام الأسطوغرافية المعاصرة الخوض في ثنايا تجاويف هذه الحلقة الملغزة والمعتمة من تاريخنا الوطني.
- انعدام كتابات محلية نابعة من صميم الذاكرة البرغواطية تعبر عن توجهات وأبعاد الحركة .
- اختزال تاريخ الحركة البرغواطية في العامل الديني - الذي قتل بحثا ودرسا وتأويلا إلى حد ما - مع الضرب عرض الحائط بالعوامل الأخرى التي تندرج في سياق المجتمع والحضارة إلخ... مما يفسر النوايا المبيتة ، والخلفيات القبلية للأسطوغرافية التقليدية والمعاصرة.

من هذا المنظور تتوخى هذه الورقة استجلاء منحنى المجال الجغرافي الذي ترعرعت فيه الحركة البرغواطية كمؤشر أولي لضبط مدى إجرائيته وفاعليته في الحفاظ على الإستقلال الذي عمر أربع قرون ومايزيد من جهة ومن جهة ثانية تسليط الضوء على مسار الصراع البرغواطي المرابطي خاصة خلال المرحلة الياسينية (نسبة إلى عبد الله بن ياسين الزعيم الروحي للدولة المرابطية)، ثم استبطان الأسباب العميقة ، والدوافع الحقيقية التي حدت بمهدي المرابطين إلى غزو ومحاربة برغواطة .

1ـ تامسنا : التسمية والمجال أية علاقة ؟

قبل استنطاق المجال الجغرافي للحركة البرغواطية لامحيد من رصد وتتبع الدلالة الطوبونيمية ، والصورة اللفظية لكلمة تامسنا .

في البداية هناك ملاحظة تستحق التسجيل ويتعلق الأمر بالكلمة ذاتها حيث الإختلاف على المستوى الصوتي ، إذ نقرأ تامسنى عند البكري (1) وفي خريطة المغرب الإركيلوجية التي نشرها الأستاذ أحمد المكناسي تمسنة (2) ويكتبها ابن خلدون (3) والحسن الوزان(4) تامسنا والنسبة إليها في اللسان العربي مسناوي وفي اللسان البربري أمسناو(5)

أما طوبونيمية تامسنا فهي كلمة بربرية بلهجة زناتة ، ومعناها البسيط الخالي ومن الأرض القفراء (6)، وهناك رأي آخر مقبول في غياب دراسات طوبونيمية محضة وهي أن اللفظة مشتقة من كلمة تمزين التي تعني الشعير وقد كانت زراعته مزدهرة في هاته المنطقة بنوع خاص (7)في حين يعطي الرأي الثالث تأويلا آخر وهي أن اللفظة تنعت بها آلة طحن الحبوب "الرحى :" إنطلاقا من ذلك نستشف ثلاثة عناصر موحية ، ومعبرة :

الأرض ↔	الحبوب ↔	الرحى
↓	↓	↓
بسيط صالح للزراعة	الشعير زراعة أساسية	آلة الطحن

تؤشر هذه العناصر على حقيقة مفادها أن منطقة تامسنا تعتمد

---

1 - أبو عبيد البكري : المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب ـ مكتبة المثنى ـ بغداد بدون تاريخ ـ ص 134.
2 - عثمان عثمان إسماعيل :تاريخ شالة الإسلامية ـ دار الثقافة ـ بيروت 1975 ـ ص 126.
3 - ابن خلدون :العبر ج6 ـ دار الكتاب اللبنانية ـ بيروت 1967 ـ ص 428.
4 - الحسن الوزان : وصف افريقيا ـ ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر ـ ج 1 ـ الرباط ـ 1980 ص 153.
5 - التاقي العلوي :مجلة البحث العلمي العدد 28 يوليوز دجنبر 1978 ت ص 242.
6 - نفس المصدر : ص 242.
7 - التاقي العلوي : مجلة البحث العلمي العدد 28 يوليوز دجنبر 1978 ت ص 242.

اعتمادا كليا على النشاط الفلاحي أو بعبارة أخرى يمكن القول أن العناصر الآنفة الذكر تحمل بين طياتها شحنة ذات مدلول فلاحي وهو ما يترجم حيوية القطاع الفلاحي باعتباره العمود الفقري لاقتصاد المنطقة وبالتالي مورد أساسي لتفعيل التبادل التجاري.

ومما تجدر الإشارة إليه أن كلمة تامسنا تلاشت زمن الحكم المريني وحلت محلها كلمة الشاوية التي يحيل جذرها الإشتقاقي على الشاة بمعنى أن الإسم له علاقة بالمجال الرعوي ، وينهض حجة على ذلك إشارة ابن خلدون إلى استيطان عرب بني هلال لمنطقة الشاوية بإيعاز من السلطان المريني يعقوب بن عبد الحق ، وذلك للنظر في رواحله والظهر الذي يحمل من الإبل (1)

نستخلص مما سبق أن الدلالة الطوبونيمية للشاوية وتامسنا تحيل معاني تركيبتهما على مرجعية واحدة هي مرجعية النشاط الفلاحي ، ومما يرتبط به من زراعة وتربية الماشية .

أما بالنسبة للمجال الجغرافي فتفيد المرجعيات التاريخية أن منطقة تامسنا معقل الحركة البرغواطية تنفرد بخاصية مميزة تتمثل جملة وتفصيلا في بساطة تضاريسها والتي طالما بهرت الرحالة بخصبها ، وكثرة زروعها من جهة ، وإسالة لعاب القوى المحلية من جهة ثانية ، ويكفي للدلالة على صحة ومصداقية هذا الرأي ما أورده صاحب وصف افريقيا الذي لم يتردد من اعتبار تامسنا زهرة هذه الناحية كلها (2) هذا فضلا عن الجبال التي أعطتها المنعة والإعتصام (3) مما ساعد على توفير الحوافز والشروط المادية للإستقرار الشيء الذي جعل بلدهم مستقلا بنفسه عن الحاجة (4)

---

1 - الناصري : الإستقصا لدول المغرب الأقصى - ج 5 - ص 66 نقلا عن ابن خلدون.

2 - الحسن الوزان :وصف افريقيا - ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر - ج 1 - الرباط - 1980 ص 154.

3 - ابن خلدون : العبر - ج 6 دار الكتاب اللبنانية - بيروت 1976 - ص 437.

4 - ابن حوقل صورة الأرض ليدن ص 83

وقد تمخض عن هذه الشروط تحقيق الإكتفاء الذاتي .

زد على ذلك أن المنطقة تخترقها أنهار عديدة ، ذكر أبو عبيد البكري أنها أكثر من مائة نهر (1) فضلا عن امتداد سواحلها على طول ريف البحر المحيط من سلا وأزمور وأنفا وآسفي (2) مما مكنها من القيام بالنشاط البحري وتكثيف المبادلات التجارية .

وفرت إذن هذه المؤهلات الطبيعية والإيكولوجية شروط إنتاج أنواع متعددة من المحاصيل الزراعية مثل الحبوب خاصة الشعير والقمح حيث سجل هذا الأخير في بعض المراحل التاريخية فائضا في إنتاجه مصداق ذلك ما ذكره الحسن الوزان نقلا عن كتب التاريخ أنه في عهد أولائك المبتدعين بلغت وفرة القمح درجة جعلت الناس يستبدلون أحيانا حمل جمل منه بنعلين(3).

علاوة على الحبوب اشتهرت بلاد تامسنا بزراعة المغروسات الموسمية كالتين والكرز والكروم لاسيما البطيخ والخيار الذي يبدأ نضجها في منتصف أبريل،وقد اعتاد الناس أن يحملوا هذه الثمار إلى فاس لأن نضجها فيها يتأخر (4).

ولقد أتاحت هذه المقومات الإقتصادية المتنوعة بإمكانية قيام علاقات تجارية وفي هذا الباب يؤكد الحسن الوزان أن برغواطة ارتبطت تجاريا مع سكان الصحراء الذين يأتون إلى تيكيت لشراء القمح (5) ونفس الرأي يؤيده ابن حوقل الذي يذكر أن أهل البصرة ، ومدينة فاس يغزونهم في بعض الأوقات ويسالمونهم ، ويتاجرونهم ، ويجلبون إليهم التجارات على ما يرونه ولاتهم ،

---

1 - أبو عبيد البكري : المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب ـ مكتبة المثنى ـ بغداد بدون تاريخ ص 140

2 - ابن خلدون :العبر ـ ج 6 دار الكتب اللبنانية ـ بيروت 1976 ـ ص 437.

3 - الحسن الوزان :وصف افريقيا ـ رجمة محمد حجي ومحمد الأخضر ـ ج 1 ـ الرباط ـ 1980 ص 157

4 - نفس المصدر :ص 156

5 - نفس المصدر :ص 156

ويصل إليهم أغمات والسوس أيضا بالتجارة ، وكذلك قوم من أهل سجلماسة (1).

ومما ينهض دليلا على رواج وديناميـة البنية الإقتصادية في بلاد برغواطة إشارة ابن خلدون "يسير الراكب فيها معترضا من تامسنا وسواحل مراكش إلى بلاد السوس ودرعة من القبلة ثماني مراحل وأزيد تفجرت فيها الأنهار ، وجلل الأرض خمز الشعراء ، وتكاثفت ظلال الأدواح وزكت فيها مواد الزرع والضرع ، وانفسحت مسارح الحيوان ومراتع الصيد، وطابت منابت الشجر "(2).

من حصاد ماسبق نستخلص أن حمولة التسمية تنسجم تمام الانسجام ، وتنطبق تمام الانطباق مع آليات المجال الجغرافي.

2 ـ الصراع البرغواطي الياسيني

تجمع النصوص المصدرية على أن الوازع الجغرافي والحافز الديني) الجهاد (هو الذي حدا بالزعيم عبد الله بن ياسين إلى استئصال شأفة قبيلة برغواطة أهل ضلال وكفر(3) وقد انساق وانجرف وراء هذا الطرح لفيف من الباحثين المعاصرين الذين اقتصروا في تفسير وتعليل النزاع الذي دارت رحاه ببلاد تامسنا على الجانب الديني ، ونحن نعزوه على الأرجح إلى العوامل الاقتصادية، وإيعاز هذا الصراع إلى الحافز الاقتصادي لا يمثل نوعا من الميكانيكية الاقتصادوية بل يؤخذ بعين الاعتبار أهمية المؤشر الديني لكن ليس محدده وموجهه وسوف يؤكد سياق الأحداث مصداقية ومشروعية هذا الطرح.

تمثل بلاد تامسنا زهرة هذه الناحية كلها من حيث غناها

---

1 - أبو عبيد البكري : المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب ـ مكتبة المثنى ـ بغداد بدون تاريخ ص 134

2 - ابن حوقل صورة الأرض ليدن ص 83

3 - ابن خلدون :العبر ـ ج 6 دار الكتاب اللبنانية ـ بيروت 1976 ـ ص 461.

وثرائها ، وزاد من أهميتها تحكم برغواطة في كل المسالك المؤدية إلى الشمال أي إلى طنجة وسبتة والبحر المتوسط، وخضوع الحزام الممتد عرضا من المحيط إلى جبال الأطلس المتوسط لنفوذها، لذلك بمجرد استقرار المرابطين بقيادة عبد الله بن ياسين بأغمات اندفعت قواتهم للانقضاض على هذه الإمارة بهدف تجريديها من خيراتها المادية ، واقتلاع جذور ديانتها لكن المرابطين بهذا الاندفاع الغير المضبوط والمدروس دخلوا في مغامرة لم تقم حسابا للقوة البرغواطية التي اشتهرت منذ تأسيس الإمارة عام 127 هـ وحتى هذا العهد بصلابة شوكتها ، إذ فشلت كل المحاولات الزيرية ، والعامرية ، والزناتية من قطع دابرها ، وهذا يفسر احتدام الصراع ، وعنف المعارك وتوالى تقهقر القوات المرابطية والذي كان من نتائجه إصابة زعيم الحركة بجراح في إحدى المعارك لقي حتفه على إثرها.

ومن أجل الحفاظ على معنوية الجيوش القتالية اضطر المرابطون إلى تعويضه بخلف جديد يدعى سليمان بن عدو الذي سقط بدوره صريعا في معركة ضد برغواطة ، وعندها قرر أبو بكر بن عمر الاحتفاظ بالزعامتين الدينية والدنيوية بعدما كان ابن ياسين يشاطره هذه المسؤولية وبعد ذلك جهز كل القوات للإجهاز في حملة مصيرية على برغواطة كان من نتائجها على حد تعبير ابن أبي زرع استئصال برغواطة حتى فروا بين يديه، وهو في أثرهم يقتل ويسبي حتى أثخن فيهم وتفرقت برغواطة، ولم يبق لديانتهم الخسيسة أثر إلى اليوم وجمع أموالهم وغنائمهم وقسمها بين المرابطين (1).

يبدو جليا أن الحركة المرابطية لم تنجح في قطع دابر

---

1 - ابن أبي زرع :الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ـ دار المنصور للطباعة والوراقة ـ الرباط ـ 1973 ـ ص 133.

برغـواطة ، وأن النصـر الذي أحرزته كـان نصـرا مقـعـقعـا، وهذا يكشف النقاب عن البعد الاقتـصادي الذي غلف الحركة،إذ كان شغلهم الشاغل وهمهم الوحيد هو جمع الأموال وتوزيع الغنائم.

ويشير ابراهيم حركات إلى أن المرابطين عملوا على تصفية الوجود البرغواطي الذي ظل فـي أوجه بكل من دكالـة وضواحي الرباط وسبتـة وفعلا عملوا على إرغـام البرغواطيين علـى تصحيح إسلامهم ، ولكي يقطعوا أملهم في الحفاظ على كيانهم المستقل خـارج الوحدة الإسـلاميـة خـربوا ما لا يقل عـن أربعين مـدينة أو مـركزا عـمـرانيا ، وأكـثـرها في منطقـة دكالـة التي انتقـلت إليهـا عاصمتهم على إثر تخريب شالة في العهد الزناتي(1).

ورغم ذلك لم يتمكن المرابطون من محق واجتثات البقية الباقية من جذور عقـيدة بدليل استمـرار المد البرغواطي ، وكـما تذكر المصادر إلى فترة بزوغ نجم الحركة الموحدية .

---

5 - ابراهيم حركات :مجلة دعوة الحق ـ العدد 244 ـ ص 30 .

عصر عبد الله بن ياسين 427هـ 451هـ 1036م 1060م*

د.م هاشم العلوي القاسمي

إن الطرق القوافلية بين بلاد المغرب والعالم الإفريقي والعالم المتوسطي قد لعبت دورا حاسما في تشكيل الدولة المغربية المركزية، ومما يشهد لهذه الأسبقية نجاح الحركة المرابطية الوافدة من أقصى جنوب الصحراء الإفريقية، فقد اعتمدت حركتها السيطرة على المحاور الطرقية التجارية وأن تفوق الحركة المرابطية في الصراع الدائر بين التجمعات القبلية والأحلاف المتقابلة في الشمال، ثم سيطرتها على المخططات والطرق هو الذي حكم بزوال الكيانات المحلية وأفضى إلى تحقيق الدولة المركزية.

ومعلوم أن الزعامة المرابطية المكونة من يوسف بن تاشفين وعبد الله بن ياسين، قد استهدفت بسط نفوذها على الطرق المجاورة بالتدريج، وكان من نتيجة السيطرة على شبكة الطرق في الشمال والجنوب والصحراء هو الذي أفضى إلى توحيد المجال المغربي سياسيا وبالتالي تكوين الدولة المغربية المركزية المرابطية.

غير أن هذا التوحيد للوضع الانقسامي في القوى السياسية المغربية، يعتبر بداية حقيقية لنشأة الدولة المركزية بالمغرب الاقصى .وبالتالي هذه " المركزة "ليست مطلقة لأنها تقوم على سواعد جهات قبلية وزعامات اجتماعية غير تامة التوحيد والتوافق، فقد تنتمي إلى عصبية الزعامة المحققة للتوحيد، وقد تنتمي إلى تجمعات قبلية مهزومة في الصراع أو متطلعة إلى تحقيق طموح سابق لها في التجمع القبلي المحلي.

* - محاضرة عامة ألقيت بمقر جماعة حد البراشوة / عمالة الخميسات يوم 14 دجنبر 1997

وهذا التحكم في الشبكة الطرقية ومراكزها هو الذي أعطى في النهاية الدولة المغربية المركزية التي توضحت معالمها بتسوير مدينة مراكش المدينة المحورية للدولة المركزية الكبرى في المغرب الأقصى، وقد تحقق ذلك التحقيق وهو توحيد تراب دولة المغرب الأقصى فيما بين 445 هـ1053م - 462 هـ1070م.

وإلى جانب العامل الطرقي القوافلي التجاري الاقتصادي، نجد أن الدولة المرابطية المؤسسة للدولة المغربية المركزية قد قامت أيضا على أساس "مشروع ديني إصلاحي "ينبني أساسا على الاتجاه السني المتمثل في النظام العقدي الأشعري والتوجيه المذهبي المالكي.

ومهما تكن المنطلقات النظرية للمشروع الإصلاحي المرابطي، فإن الهدف الأكبر الذي حققته هو الذي يرتكز عليه التحليل التاريخي العلمي في نهاية المطاف وما أنتجته من المعاني التاريخية وخاصة على المستوى الاجتماعي.

والمشروع الإصلاحي الديني المرابطي لم يقف عند مستوى الانتقاد وإنما تجاوز ذلك إلى مستوى "التعبير "أو على الأصح "الفعل السياسي "باسم الشرع وعمل السلف الصالح والعمل على إنجاز المشروع بتحويل الأقوال إلى أفعال بشتى الوسائل وكان النظام القبلي وتركيبه العشائري هو المتحكم في الواقع الاجتماعي وبالتالي هو الذي يوجه "نظام الحكم "مهما كانت المحاولات للتغلب عليه أو تعديله طبقا لمقتضيات دينية اجتماعية والغاية من العملية كلها هي تحقيق التوازن والتآزر والاجتماع أو شبه الاجتماع.

ومعروف أن المنطق العشائري يعتمد بدوره : التوزيع والإشراك والتنفيذ بمبدإ الحفاظ على التوازن بين مختلف الفصائل والمكونات العصبية (1) انظر القبلي : الدولة والمجال/

1 - انظر القبلي . (الدولة والمجال) طبعة تبقال 1997 ص : 80

طبعة تبقال 1997 ص .80.

وبناء على ذلك فإن نجاح المشروع المرابطي، ارتبط بتقوية معسكر الزعامة قبل الإقدام على التمركز في أية نقطة استراتيجية لبناء هيكل الدولة القائمة، وهذه التقوية العسكرية تمت باستدعاء وحدات قبلية أو توحيد أحلاف قبيلة وإرضائها بضمها إلى تجمعاته العصبية المؤسسة وهي صنهاجة اللثام لمتونة ومسوفة وجدالة ولمطة ...الخ، ثم إن الخريطة البشرية لبلاد المغرب الكبير في منتصف القرن الخامس الهجري11م تعتبر خريطة متغيرة بسبب التحولات البشرية التي شاهدتها المنطقة ويمكن إجمال الوضع في المرحلة التي تعتبر عصرا تاريخيا لعبد الله بن ياسين منذ بدأ تأثره بالمفاهيم المؤطرة للحركة المرابطية إلى أن استشهد في منطقة "كريفلة" وهو يباشر عملية الدعوة في بلاد برغواطة حوالي 451 هـ 1060م .

فالخريطة البشرية لبلاد المغرب في منتصف القرن الخامس الهجري/منتصف الحادي عشر الميلادي، تأثرت بمتغيرات جديدة يمكن أن أحدد أهم معالمها وذلك كالآتي :

أولا : بداية وصول الهجرة العربية الهلالية الى بلاد إفريقية تونس الحالية (ويؤرخ وصول أول موجة قبلية عربية عام 443هـ 1052م وهي هجرة جماعية حيث وصلوا بشيوخهم ونسائهم وأطفالهم وماشيتهم وانتشروا في جنوب إفريقية قصد استيطانها والإقامة في منازلها ومراعيها ونظرا للإستيطان القبلي قبلهم في المنطقة فقد أدى ذلك إلى اصطدام قبلي وصراع جديد أدى في النهاية إلى تغلب الموجة الهلالية وبالتالي إلى تعريب المنطقة ونلاحظ أن هذه الفترة عاصرت انتصار الاتجاه السني بإفريقية وتغلبه على الاتجاه الشيعي الفاطمي الإسماعيلي.

وفي هذه الظروف كان عبد الله بن ياسين ينهل من منابع

المعرفة السنية المالكية والأشعرية، وقد تعلم في هذه المدرسة السنية على كبار شيوخها وخاصة "وكاك بن زلو اللمطي " الذي تعلم بدوره على يد أبي عمران الفاسي كبير فقهاء المالكية في عصره ومن هنا جاء مشروع الاصلاح المرابطي، وبداية تعريب البوادي المغاربية بعد ذلك.

ثانيا : بداية الهجرة الصحراوية من القبائل الصنهاجية التي كانت منتشرة في التخوم الصحراوية وخاصة المجموعات القبلية التي كونت عصبية الدولة الجديدة (المرابطون) ويلاحظ تمركز مجموعات من القبائل الصنهاجية الصحراوية في الممرات والمراكز التي تعبر الطرق القوافلية.

فالعصر كله الذي ظهرت فيه حركة قيام الدولة المرابطية 440هـ 460هـ 1050م - 1068 م هو عصر تحركات بشرية شديدة التنوع من عرب وبربر أفارقة وأندلسيين وغيرهم هذا العصر المليء بالمتغيرات والتحركات البشرية لا يمكن فهمه إلا إذا أجمعنا فيما بين مجموعاته البشرية والمتحركة داخل مجالنا المغربي في إطار حدثي متكامل وهو في هذا العصر "قيام المرابطين "ومعالجة هذا الجانب يتطلب تفصيلا في غير هذا المقام.

ثالثا : واقع خريطة التجمعات القبلية (الأحلاف الكبرى) في منتصف القرن الخامس الهجري/منتصف الحادي عشر الميلادي :

لضبط ذلك يفرض المقام العودة قليلا إلى نهاية القرن الرابع الهجري 10م، أو على الأصح إلى تاريخ الانتقال العبيدي الفاطمي من بلاد المغرب الى دلتا النيل المصري أي في تاريخ تأسيس مدينة القاهرة 362هـ 972 م، وابتداء من هذا التاريخ إلى بداية ظهور الحركة المرابطية في الواجهة الشمالية لجبال الأطلس الكبير (درن)، نلاحظ أن واقع خريطة التجمعات الحلفية القبلية واقعا انقساميا تجزيئيا، كل تجمع كان له عالمه المتميز به وقد أطلقت المصادر على تلك

"التجمعات القبلية "اسم "الدولة "وهكذا تجزأت الخريطة المغربية وصار الوضع العام في المغرب الأقصى على شكل فسيفساء من "الدويلات "أو على الأصح "الإمارات القبلية"، وهكذا يمكن ضبط أهم التجمعات التي كونت الخريطة السياسية المغربية في المرحلة التي عرفت قيام "الدولة المرابطية "وذلك على الشكل الآتي :

1 - إمارة بني صالح بنكور في الشمال المغربي، وكذلك إمارات القبائل بالريف في شمال المغرب الأقصى، وهذه الجهات لم تخضع للمرابطين إلا في عهد يوسف بن تاشفين، أي حوالي 473هـ 1080م.

2 - إمارة بني يفرن الزناتية في شالة وما يليها من الجهات بمنطقة الغرب وفاس.

3 - إمارة مغراوة بفاس والجهات التابعة لمغراوة في هذا العهد.

4 - إمارة "برغواطة "بتامسنا، وكانت هذه هي المستهدفة بعملية الفتح في مرحلة "عبد الله بن ياسين "وتؤكد المصادر على أن الزعيم الروحي للدولة المرابطية قد استشهد في حربه لبرغواطة حيث كانت " كريفلة "قرب مدينة الرباط الحالية يوم الاحد 24 جمادى الاولى عام 451هـ 9 يوليوز 1059م حيث قتل فيها الإمام عبد الله بن ياسين.

5 - إمارة بنو وانودين المغراوية بأغمات ونفيس وما إليها.

6 - إمارة بني توالي بفزاز

7 - إمارة مكناسة الجبل المعروفة بدولة بني موسى بن أبي العافية بتازة وما إليها .

8 - إمارة بني واسول بسجلماسة.

9 - إمارة درعة ونول لمطة وسوس.

هذا الشتات من التجمعات القبلية والإمارات البربرية ما كان له أن يكون كيانا موحدا إلا بالحركة المرابطية التي أطرها دينيا عبد الله بن ياسين وسياسيا وقياديا الأمير يوسف بن تاشفين.

معالم الزعامة والوحدة في حركة عبد الله بن ياسين

محمد العناوي

غالبا ما تطرح عملية الإنتقال من مرحلة تاريخية إلى أخرى في منطقة بلاد المغرب إشكالية ،ويجد الباحث نفسه أحيانا بين فكرتين عندما يحاول كتابة التاريخ لواحدة من هذه المراحل (1) وقد جرت العادة عند باحثينا وفي كل أعمالهم بمعالجة الفترة المتأخرة من الدولة الحاكمة المندثرة لجعلها كمدخل لموضوعه الرئيسي ، أو ربما جعلها مفتاحا للانكباب في البحث على الدولة الموالية ، وقد كان لإخواننا المشارقة باع طويل في هذا الميدان وورثنا عنهم الشيء الكثير بحكم أسبقيتهم في هذا وبتوفر مواد دراساتهم بين أيدينا منذ زمن بعيد ، إضافة إلى المستشرقين الذين ساهموا بقدر لايستهان به في الأبحاث التاريخية وإن كانت هذه الأخيرة لها ما لها وعليها ما عليها (2)

وانطلاقا من هذا ومن خلال المصادر (3) التي اهتمت بتدوين أحداث دولة ما،تميزت هي بدورها بسرد مادة غزيرة في بعض الأحيان وخصوصا في تاريخ بعض الدول بالأفراد والشخصيات جعلت منهم مؤسسو هذه الكيانات والممالك إلى

---

1 - ندرك أهمية هذه الملاحظات عندما نرى الأخطاء التي يرتكبها كل من يتغافل عنها في تقييمه للأحداث اللاحقة ، كما لو كان تاريخ المغرب يبدأ دائما من لاشيء ، وأن عمل كل دولة يختفي في الوجود بذهاب ريحها ومقتل أمرائها.
*العروي ، عبد الله ، مجمل تاريخ المغرب ، جزء 2 ، ص 22 و23 ، المركز الثقافي العربي ، البيضاء 1994.

2 - ساهم المستشرقون بدراسات مهمة وقيمة في تاريخ المغرب غير أن بعضها اتسم بنوع من التحيز والتحامل على بعض الكيانات السياسية المغربية أمثال تيراس وكوتيه ومن يحدو حذوهما .
* العروي ، المرجع السابق ، ص 108و110 .

3 - يشير الأستاذ المنوني إلى قلة ما تبقى من المصادر التي تؤرخ للفترة وهي ظاهرة لا تزال قائمة إلى حدود قيام المرابطين ، خصوصا فيما يتعلق بمرحلة التأسيس.
* المصادر العربية لتاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى غاية العصر الحديث العجزء الأول ، ص 28 ، منشورات كلية للآداب والعلوم الإنسانية .الرباط 1983.

حدود مرتبة الزعماء يرجع لهم الفضل في ظهورها ، ولازالت إلى يومنا هذا في ذاكرتنا وذاكرة أبنائنا من بعدنا أن كل دولة حكمت المغرب اقترنت بزعيم روحي سياسي عسكري قاد القافلة إلى ترسيخ نظام سياسي وحدوي في المغرب ، فإدريس بالأدارسة وعبد الله بن ياسين بالمرابطين والمهدي بن تومرت بالموحدين وابي يحيى بالمرينيين وغيرهم .

أكيد أن المادة التاريخية الواردة في المضامن المغربية والأندلسية أو المشرقية اختلفت باختلاف منابع كتابها ، وبقيمة وكمية المادة الواردة حول هذه الشخصية أو تلك (1) ، فأغلبيتها هي عن شخصيات تاريخية مغربية جاءت بعد المؤسسين الأوائل، فالمادة حول يوسف بن تاشفين أكثر من عبد الله بن ياسين ، ومادة عبد المومن أكثر من المهدي .حقيقة هي أن هذه الشخصيات كان لها الفضل في ترسيخ أسس الممالك والإمبراطوريات بالتوسع الجغرافي، والإنتصارات وربط العلاقات مع بقية الأمم الأخرى، وبهذا يكون الزعماء الحقيقيون هم الذين وضعوا اللبنة الأولى لكيانات سياسية وحدوية كعبد الله بن ياسين وغيرهم وأتم من جاء بعده البناء حتى اكتملت شروط الدولة وأسسها وأصبحت مهابة الجانب في جميع أنحاء العالم القديم (2)

ارتبطت بلاد المغرب ببلاد المشرق منذ وصول أول الفاتحين العرب إليها ، وازداد ارتباطها عندما بدأت العناصر البربرية تشارك في الغزوات ، وازدادت أهميتها عندما أصبحت تشكل أغلبية

---

1 - المنوني ، المرجع السابق ص 28 و33 .العروي ، المرجع السابق،ص108

2 - تعتبر الدولة المرابطية الأولى من دول المغرب ذات الأهمية العالمية إذ يوجد لها ذكر في الحوليات العصينية ، انظر بيلوغرافية بحث باولودي مواريس فارياس ، مجلة أفان ، دكار 1967 ، ص 871 ، نقلا عن العروي المرجع السابق، ص 108

الجيش متزعمة بذلك عملية الفتح الإسلامي .(1) غير أن الملاحظ أن هذا الإرتباط اختلفت درجته باختلاف المواقع الجغرافية والتجمعات البشرية المتواجدة بها وهو عامل يفسر كثيراً من الإشكاليات المطروحة في تاريخ المغرب .

تجسد هذا الإرتباط وبعد استقرار الفتح الإسلامي ببلاد المغرب في التفكير ، في إقامة وإنشاء كيانات سياسية مستقلة ناتجة عما أصاب الدولة المركزية في المشرق من تدهور وانحطاط ، فكان أن ظهرت إمارات خارجية في كل من تاهرت وسجلماسة وشيعية في فاس (2)، فالمصادر التاريخية تخبرنا بأن متزعمي هذه الحركة كانت وفادتهم من المشرق لظروف ما ، أو كانت محلية استمدت ثقافتها السياسية والإيديولوجية من زعماء مشارقة لهم باع طويل في العمل على تقويض نفوذ الدولة القائمة.

يبدو أن هذه الإمارات كانت اللبنة الأولى لظهور فيما بعد كيانات سياسية جديدة أخرى دشنت ما يسمى بمرحلة الإستقلال عن المشرق سياسيا ، وإن كان التواصل مستمرا بين الشعوب والأمم التي تحتضنها هذه الدولة أو تلك ، وما ظاهرة الحج وطلب العلم والرحلة إلا عربونا عن استمرارية هذا التواصل .وبالتالي فإن إشكالية الحدود في هذا الزمن وفي دار الإسلام لم يكن مطروحا .

---

1 - تشير أغلب المصادر العربية بأن مشاركة البربر في فتح الأندلس تحت قيادة طارق بن زياد كانت عاملا مهما في تشجيع البربر على اعتناق الإسلام ، وشعورهم بنوع من المساواة مع العناصر العربية ، كما ترجع بعض هذه المصادر إلى ان قبيلة لمشونة دخلت الإسلام في بداياته الأولى واكتمل بعد فتح الأندلس ولم يستقر إسلامهم حتى اجاز موسى بن نصير إلى الأندلس بعد أن دوخ المغرب وأجازا معهما كثيرا من رجالات البربر وأمرهم برسم الجهاد فحينئذ استقرالإسلام بالمغرب واذعن البربر لحكمه ورسخت فيهم كلمة الإسلام وتناسوا الردة."

*ابن خلدون،عبد الرحمان، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن ع عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، المجلد السادس ، ص 181، دار الكتاب اللبناني بيروت 1978

2 - تشكلت الخريطة السياسية والعقيدية لبلاد المغرب بنجاح الخوارج الأباضية في منطقة المغرب الأوسط، والخوارج الصفرية في منطقة تافيلالت والشيعة الزيدية في منطقة فاس في تأسيس دويلات أو إمارات محلية ، ارتبطت فيما بينها بعلاقات ودية رغم اختلاف مذاهبها .

أصبحت كل من سجلماسة وفاس قبلة الوافدين من كل صوب وحدب ، فالقوافل تحط وتقلع ، تحمل وتفرغ البضائع المرئية وغير المرئية واستفاد المحليون والوافدون من أعمال التجارة ، فأصبحت بذلك قبلتي كل تجار العالم القديم ، فتم الاحتكاك بين العناصر وتبادل الثقافات والعلوم ، فاشتهر كثير منهم في كل من عاصمة بني مدرار و الأدارسة[1]

لكن يبدو أحيانا أن الريح تجري بما لا تشتهيه السفن ، وكلما هبت ريح ملاح شكا وملاح شكر ، وكانت هذه الريح هي الفاطميون العبيديون الذين دخلوا كطرف نزاع في المنطقة إلى جانب دولة الخلافة الأموية في الأندلس، التي مافتئت ترى في بلاد المغرب بلدا لا يمكن الاستغناء عنه ، لأنه يمثل حبل الوريد لوظيفتها التي شغلتها منذ قيام دولتهم بها ، ونفس التصور إرتآه العبيديون ، وبالتالي أصبحت الكيانات السياسية المستقلة في بلاد المغرب بين المطرقة والسندان ، لم تسلم أي واحدة من نتائج هذا الصراع، فمنها من اندثرت ككيان سياسي، ومنها من استمرت الى حين دنو أجلها، ولاشك أن منطق المركز والأطراف لعب دورا أساسيا في هذه العملية، فبناء القاهرة واتخاذها عاصمة[2] يهدف إلى تغيير وتحويل قوى هذا المنطق والدخول في منافسة قرطبة التي احتلت الصدارة منذ القرن الثاني الهجري، فتحكمت في ذلك صيرورة بلاد المغرب، جعلت الفاطميون

---

1 - تزخر المصادر العربية الإسلامية بمادة تاريخية جد قيمة حول هذه الحركة التجارية في هذه الدول خصوصا بعد انشاء عواصم لها كسجلماسة وفاس وتاهرت ، التي شغلت وظيفة مراكز تبادل تجاري كثيف مع الصحراء .محمود اسماعيل عبد الرازق ، الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري ، ص 222، البيضاء 1976.

2 - أحدثت حركة العبيدين خللا في بنية النشاط الإقتصادي ببلاد المغرب خصوصا بعد توجه القائد جوهر الرومي إلى مصر مصحوبا بمائة ألف محارب وما لا يقل عن ألف صندوق من الذهب ، دخل الفسطاط في 17 شعبان من عام 358 هـ 969/م وبدأ في حينه التخطيط لبناء مدينة جديدة تكون عاصمة الدولة الفاطمية سميت بالقاهرة .

يدركون هذا وبالتالي العمل على تقويض هذا النفوذ باستمالة الكيانات السياسية المغربية بطرق شتى، فكانت بذلك تعمل ما في وسعها لكسب المزيد من الأتباع وبالتالي يوفرون لها المزيد من السيطرة على شبكة المسالك التجارية التي كانت توفر ثروة أساسية للأندلس.

يطبع تاريخ المغرب في العصر الوسيط ظهور زعامات دينية في البداية، سياسية في النهاية، هي مرحلة تاريخية لا يمكن الفصل فيها بين الدين والسياسة، فالسياسة هي الدين والدين هو السياسة، والأمثلة كثيرة، نذكر بعضها على سبيل الحصر، فإدريس ولى وجهته المغرب، وبالخصوص شمال المغرب الأقصى على وجه الدقة، فقد كانت لظروف مواتية بفراغ البلاد من سلطة إسلامية مركزية، فاحتضنته قبيلة أوربة البربرية التي كان لها وزنها السياسي قبل وبعد الفتح الإسلامي، وبالتالي توفرت له العصبية البربرية المحلية، فقدمته عليها وأصبح صاحب الأمر والنهي فيها .فتوفرت له بذلك شروط قيام دولته، حسب نظرية ابن خلدون "في أن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية التي كانت لها من عددها، ...أن الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذي في أهل العصبية وتفرد الوجهة إلي الحق فإذا حصل لهم الإستصبار في أمرهم لم يقف لهم شيء لأن الوجهة واحدة والمطلوب متساو عندهم وهم مستميتون عليه، وأهل الدولة التي هم طالبوها "(1) فإلى أي حد تنطبق هذه النظرية على الزعيم عبد الله بن ياسين وتعطي ملامح الزعامة لحركته.

إن نظرية ابن خلدون في قيام الدول معقولة الى حد ما، لكن مزيدا من التعمق في استقصاء الأسباب والبحث عن العلل

---

1 - ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، الجزء الثاني ، ص 527 ، تحقيق ونشر علي عبد الواحد وافي دار نهضة مصر للطباعة والنشر القاهرة 1979

يقود الى ضرورة وجود اتساق بين أهداف الدعوة ومراميها وبين ظروف العصبية ومطامحها فما لم تكن الدعوة (أي دعوة) متبنية لمطالب الجماهير معبرة عن آمالها، فمصيرها الفشل لامحالة ومن ناحية أخرى لاجدوى على الإطلاق في دعوة ما، مهما كان نبل أهدافها ما لم تستند على الجماهير المناصرة لها، فلا الدعوة الحقة وحدها ولا العصبية بذاتها قادرة على إحداث التغيير وإنما نجاحه مرتهن أساسا بإيجابية العلاقة بين الدعوة والعصبية بحيث تتسق مبادىء الدعوة مع حاجات العصبية متجلية في زعيم الدعوة والعناصر المكونة للعصبية.

شكلت العصبية الصنهاجية إحدى دعائم الزعامة لعبد الله بن ياسين، فكانت سنده في نجاح حركته الإصلاحية خصوصا وأنها كانت من أقوى القبائل البربرية وأمنعها، رجالها يملؤون بطاح المغرب وسهوله وجباله فاعتبرهم المؤرخون شعبا تنضوي تحت لوائه قبائل بلغت السبعين ومن أشهرها لمتونة، جدالة، لمطة، ومسوفة (1) فأكسبتها خبرتها في الحرب تبني إستراتيجية عسكرية في الظروف الحرجة حتى أن إسم " الملثمين " الذي أطلق عليهم في بعض الروايات جاء وفق طبيعة تعاملهم العسكري مع عدو طارىء (2)

أما مواطنهم الرئيسية فكانت النقطة الصحراوية الممتدة من غدامس شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا ومن جبال درن شمالا إلى أواصر الصحراء الكبرى جنوبا، (3) وقد أجبرتهم معطيات الأماكن الطبيعية والمناخية على نمط عيش خاص، يقتصر على ماتنتجه الواحات القليلة أو ما يزودونهم به الرحالة التجار من حين إلى آخر إلى جانب هذا ونظرا للحروب والغارات، فقد مهروا في الصناعات

---

1 - ابن خلدون العبر المجلد السادس ص : 125 السلاوي أبو العباس الناصري، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ج 1 ص 98 الدار البيضاء 1954

2 - مجهول ، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، ص 8 ، البيضاء 1979 .

3 - ابن خلدون ، نفس المصدر السابق ، المجلد السادس ، ص 370 - 371

الحربية كالدوق اللمطية والمزاريق وغيرها من الآلات الحربية، ولاشك أن بعض صناعاتهم الحربية بلغت شهرتها الآفاق فكانت مطلوبة لدى التجار الوافدين، إضافة إلى تصدير بعض فائض الإنتاج من المزروعات الواحية(1).

مكنتهم عملية التبادل التجاري من التواصل والإتصال وأكسبتهم بذلك مهارة في ربط بلادهم ببقية بلدان العالم القديم وذلك عن طرق يمكن تصنيفها كالتالي :

- الطريق الساحلي على المحيط الأطلسي، منطلقه من نول حتى مصب نهر السنغال.

- الطريق الداخلي، مواز للأول قريب منه، يتوجه إلى الشرق ومنطلقه من تارودانت - اوليل.

- الطريق الأوسط، يمتد في أواسط المغرب إلى قلب الصحراء - مالي - النيجر منطلقه من سجلماسة عابرا ازكي - اودغشت ثم النيجر.

- مسلك الصحراء من السودان الغربي إلى أواسط الصحراء شرقا.

لاشك أن معرفتهم الدقيقة بالمجال الصحراوي وظروفه الطبيعية أكسبتهم بذلك تجربة لا تتوفر لغيرهم من سكان شمال المغرب (2) مكنتهم من الإستفادة من تجارة العبور ووفرت لهم وظائف ليس لغيرهم كالحراسة ، والإرشاد ، وغيرها، فاصبحوا بذلك يتحكمون في التجارة بشكل غير مباشر، فكثيرا ما قدموا يد المساعدة مقابل أجر لأصحاب القوافل العابرة لمنطقتهم فكانت وظائفهم هذه تدر أرباحا تختلف باختلاف أحجام القوافل .

كان لهذه الوظائف وللتعامل التجاري أثر في بنية المجتمع،

---

1 - البكري ، أبو عبد الله ، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص 164 نشره دوسلان ، الجزائر 1857.

2 - ابن خلدون ، العبر، المجلد السادس ، ص 371.

إذ شكلت طبقتين متميزتين : الأرستقراطية وهي مكونة من الأثرياء ، جمعت المال والجاه ، منها الأمراء الذين استأثروا بالسلطة والمحافظة على المصالح فتكون لها استعداد لمقاومة من يهددها أو يحاول انتزاعها منها ، محابية بذلك الفقهاء المحليين الذين يقتاتون من ثرائها . ولم تقتصر موارد ثروتها على التجارة فحسب، بل اقتنت الأراضي الزراعية في الواحات ، ومناجم الملح، وقطعان الماشية، فاحتكرت بذلك مصادر الثروة، وتجلى أثر هذا حتى في البنيان إذ اختلفت دورهم عن بقية المنازل متميزة أبوابها الخارجية بعلوها وبنيان يختلف ليعكس ثروة أصحابها (1)

طبقة عامة الناس، وتشكلت من الفقراء الذين اشتغلوا بالرعي، والعمل الزراعي والإرشاد والتكشيف بالنسبة للقوافل الصادرة والواردة، تؤدي الضرائب للأمراء والأعيان فكانت أكثر تأثيرا بالأوضاع الإقتصادية، تعاني الفاقة والمجاعة، حتى في مساكنها وفي طبيعة بنيانها .

العبيد وقد ازداد عددهم نتيجة الحروب مع الزنوج الوثنيين، حتى بلغ أكثر من ألف عبد للرجل منهم (2)، فلم تنحصر وظائفهم في البيوت بل كانوا يستخدمون في استخراج الملح من المناجم (3).

يبدو أن المال عج بهم في أمورهم الدنيوية، فتناسوا بذلك أمور الآخرة فغض الفقهاء المحليون الطرف عن وظيفتهم الدينية فمالوا أو استمالوا إلى جانب الأمراء وأصحاب الجاه لينالوا من فضلهم، فعادت القبائل إلى سابق عهدها في ممارسة بعض العادات والطقوس المجوسية (4)، فترسخت بذلك عادات اجتماعية

---

1 - البكري، المصدر السابق ، ص 165.
2 - نفسه ، ص168 .
3 - نفسه
4 - كان موطنهم من بلاد الصحراء يعرف بكاكدم، وكان دينهم جميعا المجوسية شأن برابرة المغرب.
* ابن خلدون ، المصدر السابق ، المجلد السادس ، ص 371.

يبدو أنها تتنافى مع الإسلام كالزواج بأربع حرائر والزنا والمصادقة(1) فألفوها وساروا عليها. ويظهر من خلال النصوص أن عبد الله بن ياسين قاسى الأمرين في محاربتها ولاشك أنها كانت تعتبر من مقدساتهم بحيث ستشكل في المستقبل نواة تحالف ضده.

تربط النصوص التاريخية إسلام الملثمين في بداياته الأولى، واكتمل بعد فتح الأندلس ، "فلم يستقر إسلامهم حتى أجاز طارق وموسى بن نصير إلى الأندلس ....وأجازوا معهما كثيرا من رجالات البربر وأمرهم برسم الجهاد فحينئذ استقر الإسلام بالمغرب وأذعن البربر لحكمه ورسخت فيهم كلمة الإسلام وتناسوا الردة "(2).

آمن البربر بالإسلام الذي يدعو إلى المساواة بين المسلمين، وإلى جهاد الوثنيين ومحاربتهم حتى يعلنوا إسلامهم أينما حلوا وارتحلوا ، فتولت بذلك هذه الوظيفة قبيلة لمتونة في تخوم الصحراء ، في شخص تيولوثان اللمتوني لمدة ثمانية عقود فخلفه حفيده ثم بعده تميم الذي قتل عام 306 هـ 920 م على يد مشايخ صنهاجة (3).

يبدو أن موت تميم غيرت مجرى الصراع بين الوثنيين والمسلمين، إلى الصراع بين القبائل الصنهاجية وتفرقتها لمدة تتراوح بين القرن ونيف من السنين، حتى يظهر زعيم آخر ليتضلع بالمهمة التي قام بها من قبل سلفه، وهو محمد بن تيفاويت اللمتوني(4) الذي جمع كلمتهم ووحدهم لكن مصيره كان

---

1 - ابن بطوطة ، تحفة النظار في غرائب الأمصار ، ص 622، دار الفكر بيروت 1968.
2 - ابن خلدون ، العبر ،المجلد السادس ، ص 108-110.
3 - ابن أبي زرع ، علي بن أبي زرع الفاسي ، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، ص76، دار المنصور ، الرباط 1973.
4 - نفس المصدر والصفحة.

مشابها لسلفه تميم على يد الوثنيين بعد ثلاث سنوات من حكمه، فخلفه في منصبه الأمير يحيى بن ابراهيم الجدالي (1).

لاشك أن هذا الأخير كان رجلا مستنيرا ، بحكم تجربته واستفادته من سلفه في العلم والفقه والسنة ، وارتأى أن تجربته لا يكتمل بنيانها إلا بالهجرة إلى الأماكن المقدسة والخروج من ديار الملثمين، قصد أداء فريضة الحج التي غالبا ما كانت تقترن بطلب العلم في المدارس على فقهاء أجلاء، فوجد ضالته في القيروان التي ذاع صيتها في أرجاء العالم الإسلامي ، مقصدا لعلماء المشرق والمغرب والأندلس، يبتغون وراء ذلك التعمق في مذهب مالك والاستماع من تلامذته، فكان أبو عمران الفاسي أحدهم وتكشف المحاورة بين هذا الأخير ويحيى أن الإسلام والمذهب المالكي لم يستقرا بعد في نفوس لمتونة نظرا لكونهم منقطعون في الصحراء لا يصل إلى بلادهم إلا التجار المنشغلون بعملية البيع والشراء (2) دون الإسلام ونشر مبادئه .

اجتمعت كل من نبل رسالة أبي عمران الفاسي في نشر الإسلام ومذهب مالك ، وإخراج اللمثونيين من الظلمات إلى النور (3) ورغبة يحيى وحرصه على العلم والتعلم مع سلامة نيته وصحة عقيدته أفضت في الأخير إلى اتفاق الإثنين على إيفاد عالم معه إلى الصحراء ، إلا أن أبا عمران الفاسي، لحصافة رأيه وعلمه بخصوصيات قبيلة الأمير يحيى ارتأى أنه لابد من فقيه صحراوي يعرف بيئتهم وعاداتهم وتقاليدهم معرفة تامة ويلم بلسانهم لتأدية واجبه وهداية القوم إلى سواء السبيل ، خصوصا بعد أن رفض

---

1 - البكري ، المغرب ، ص 164، ابن أبي زرع ، القرطاس ، ص 76، السلاوي ، الإستقصاء، ج 1 ، ص 99.

2 - الحلل ، ص 8.

3 - ابن عذاري ، أبو عبد الله محمد بن عذاري المراكشي ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، الجزء الرابع ، ص 11 ، تحقيق احسان عباس، دار الثقافة ، بيروت 1980.

تلامذته في القيروان مصاحبة الأمير إلى الصحراء (1) فلم تجد نفعا محاولة إقناع هؤلاء الطلبة بالترحال إلى لمتونة صنهاجة ، وبالتالي التجأ إلى المراسلة والبحث عنه في أماكن خارج القيروان في مدينة نفيس من أعمال السوس حيث الإمام وجاج بن زلو اللمطي الصنهاجي فجاء في الرسالة مايلي "أما بعد إذا وصلك حامل كتابي هذا وهو يحيى بن ابراهيم الجدالي فابعث معه من طلبتك من تثق بعلمه ودينه وورعه وحسن سياسته ليقرئهم القرآن ويعلمهم شرائع الإسلام ويفقههم في دين الله ...فانتدب الشيخ وجاجا رجلا فاضلا من تلامذته يدعى عبد الله بن ياسين الجزولي" (2).

تشير بعض المصادر أن ولادة عبد الله بن ياسين كانت في قرية تمامانوت في طرف صحراء غانة (3) وهو عمل لعب دورا في بناء شخصيته بحيث كان للبيئة الصحراوية دور في معرفة تقاليد وطبائع ولغة قومه وترعرع بين أحضان هؤلاء فدرس بها وتعلم ، وبعدها بدأ رحلته العلمية في اتجاه الأندلس لاستكمال تكوينه "فدخلها في دولة ملوك الطوائف فأقام بها سبعة أعوام وحصل فيها على علوم كثيرة ثم رجع إلى المغرب (4) ولاشك أن مقامه بها مكنه من معاينة واقع متفسخ من جراء صراع ملوك الطوائف بينهم وغياب عنصر موحد بين هؤلاء ، وهو نفس الواقع الذي كان يعيشه المغرب بعد تفكك دولة الأدارسة وظهور إمارات مستقلة الواحدة عن الأخرى "فكان أهل المغرب يتولون أمور بلادهم، وأمراؤهم يتولون الإمارة بينهم إلى أن تغلب كل شخص منهم على موضعه كما فعل ملوك طوائف الأندلس" (5)

---

1 - ابن أبي زرع ، القرطاس ، ص 77 ، السلاوي ، الإستقصاء، الجزء الأول ، ص 99 .
2 - ابن أبي زرع ، القرطاس ، ص 78، ابن الخطيب ، الحلل، ص 10، ابن خلدون، العبر، المجلد السادس ص 182و 183، السلاوي، الإستقصاء، الجزء الأول ، ص 99.
3 - البكري ، المصدر السابق ، ص 165.
4 - ابن عذاري ، المصدر السابق ، الجزء الرابع ، ص 10.
5 - نفس المصدر والصفحة.

قفل عبد الله بن ياسين راجعا من الأندلس إلى بلاد المغرب بعد أن أدرك أن وضع الأندلس لا يختلف عن ما هو عليه في المغرب ، وكانت عودته هاته بداية رحلة استكشافية ومعاينة للواقع ، مارا بمنطقة تامسنا التي وجد فيها أمما لا تحصى جلها تحت حكم أمراء برغواطة ، وبقوة عسكرية تتجاوز ثلاثة آلاف جندي زيادة على ما انضاف إليها من سائر القبائل البربرية مثل جراوة وزغاوة ومطغرة والبرانس وركونة وغيرها، مكونة بذلك جيشا قوامه خمسون ألفا في مجموعه بين فارس وراجل (1)

يبدو أن مروره بمنطقه نفوذ البرغواطيين، أكسبه خبرة عسكرية حول هذه الإمارة وبالتالي لا جدوى من إعلان عملية الإصلاح عليهم رغم اشتهار هذه الأخيرة بهرطقتها وخروجها عن مبادئ الدين الإسلامي كما جاء عند بعض المؤرخين (2) وبالتالي أي عملية هي مضيعة للوقت ولا جدوى منها ، لهذا استأنف رحلته في اتجاه المصامدة، فوجد الفوضى تعج مواطنهم ، يغير بعضهم على بعض يغنمون الأموال ويقتلون الرجال ويسبون الحريم ولا يرجعون إلى طاعة إمام (3) فأدرك بأن وضع المصامدة لا يختلف عن ما هو عليه في الأندلس.

كانت عملية الحوار مع هذه القبائل بمثابة جس النبض لطبيعة ردود فعل إزاء اي عملية إصلاحية ودرجة قبولها لأفكار داعية ديني، عندما خاطبهم "ألا تعرفون الله ربكم ومحمدا رسولا لكم عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، فقالوا له ":نعم عرفنا الله ربنا ومحمدا نبينا (ص) فقال لهم عبد الله ": ما لكم بدلتم وغيرتم ، هلا قدمتم عليكم إماما يحكم بينكم بشريعة الإسلام وسنة النبي عليه السلام "فقال له بعض أشياخ

1 - نفس المصدر والصفحة.
2 - البكري المصدر السابق ، ص 135 و 136.
3 - ابن عذاري ، المصدر السابق ، الجزء الرابع ، ص 10.

المصامدة : لايرضى أحد منا ينقاد إلى حكم أحد من غير قبيله "(1) فكانت النتيجة هي رحيله عنهم بعد أن أدرك أن تفتت عصبية المصامدة جعلت منهم أمة يصعب توحيدها خصوصا وأنه من عصبية غير مصمودية فاتخذ وجهته نحو قبيلته جزولة حيث بدأ مشواره الإصلاحي.

بدأت معالم الزعامة في حركة عبد الله بن ياسين عندما رحل من جدالة إلى لمتونة واستطاع ان يجمع شملهم وانقيادهم له مع أميرهم يحيى بن عمر زعيمهم فكان هذا بداية لعملية الإصلاح الديني الإجتماعي التي شملت قبائل من صنهاجة، يعرفون ببني وارث ولمشونة وجدالة بدعوة الحق ورد المظالم وقطع المغارم وتمسكهم بالسنة وكان ذلك بإيعاز منه (2)

إلا أن هذه المحاولة الإصلاحية لم تكم مهمة سهلة بل اعترضتها صعوبات ومخاطر كادت أن تؤدي به إلى التهلكة من قبل الملثمين الذين غلب عليهم الجهل وعادوا إلى سابق عهدهم في ممارسة بعض العادات الموروثة عن الآباء والمتنافية مع مبادئ الشريعة الإسلامية فانتشر المنكر والظلم على حساب الأمر بالمعروف والعدل، فارتأى أن دعوته يجب أن تبدأ في إصلاح شؤون هذا المجتمع، فكان أن تعلق به الفقراء وعامة الناس التي كانت تعاني من وطأة الأمراء والأشراف، خصوصا عندما أمرهم ببناء مدينة سموها "ارتننى "وأمرهم أن لا يشف بناء بعضهم على بعض فامتثلوا ذلك وهم يسمعون له ويطيعون إلى أن نقموا عليه أشياء يطول ذكرها وكأنهم وجدوا في أحكامه بعض التناقض فقام عليه فقيه منهم ...مع رجلين من كبرائهم فعزلوه عن الرأي والمشورة وقبضوا منه بيت ما لهم وطردوه وهدموا داره وانتهبوا

---

1 - نفس المصدر والجزء ، ص 103.

2 - البكري ، المغرب ، ص 166، الحلل، ص 11، ابن عذاري ، البيان، الجزء الرابع، ص 11.

ما كان فيها من أثاث "(1).

لاشك أن الأرستقراطية الصنهاجية بما فيها فقهاؤها أدركت أن عملية الإصلاح هاته قد مست بمصالحها الإقتصادية ومكانتها الإجتماعية بعدما كانت هي صاحبة القرار متميزة ليس على المستوى المادي فحسب بل كذلك على المستوى العمراني إذ كانت بيوتها ومنازلها تبنى بشكل يعكس مستوى ثرائها عن عامة الناس (2)

اصطدمت التجربة الإصلاحية الأولى في قبيلة لمثونة بمعارضة عنيفة من طرف فئة الأثرياء الذين رأوا في ما جاء به عبد الله بن ياسين في ميدان الإصلاح لا يوافق أهدافهم ولا موقعهم الإجتماعي في مجتمع اعتمد على الفوارق والإستغلال بين هؤلاء وطبقة المعدمين ، وانعكست درجة الفعل على شخصية عبد الله لتدفع به إلى التفكير في الإنزواء بعيدا وفي نمط جديد من العمل أو العودة من حيث أتى إلا أن يحيى أثناه عن عزمه هذا قائلا له " : إنما أحضرتك لتعلمني وليس علي أن أجبر الناس على ترك ما هم فيه "(3).

كانت عملية الإنزواء والعزوف عن العودة من بين العوامل التي بدأت تشكل شخصيته وتؤهله للزعامة ، فاستحسن الإقامة في جزيرة من البحر في حوض نهر السينغال يقتات حلالا من البر والبحر ، ثم يتعبدون حتى الموت (4) تاركا ديار الملثمين على حالها، غير أن هذا لم يفت في ساعد عبد الله بن ياسين فأسس رباطا للعبادة والمرابطة والإستقطاب، وهي استراتيجية تنم عن براعة وحذق هذا الأخير في تكوين أتباع تحولوا إلى أنصار بعد زمن قليل من مرابطتهم ، فلم تكن وظيفة هذه المؤسسة دينية صرفة بل تؤكد جل المصادر على أنها مؤسسة عسكرية كذلك

1 - البكري ، المصدر السابق ، ص 165 و 166.
2 - تميزت دور ومنازل طبقة الأشراف وكبار القوم باتساع مساحتها وارتفاع أبوابها الخارجية، وهي دليل على مستوى الثراء والغنى لدى هؤلاء ، البكري، المصدر السابق /ص 165 و 166.
3 - البكري ، المغرب ، ص 165 و 166 ، ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص 78.
4 - ابن أبي زرع ، المصدر السابق ، ص 79.

في الدرجة الثانية بحيث كان من الواجب على الذين يقومون بالمرابطة القيام بالوظيفة العسكرية من حرب وصنع أسلحة وجهاد كلما داهم خطر أجنبي الإمارة الحاكمة ، كما اشتغل الرباط بالتنظيم السياسي للعناصر المرابطة بهدف العمل على التغيير والإصلاح للمجتمع كلما سمحت بذلك الظروف.

أصبح عبد الله بن ياسين أمير الرباط وزعيم المرابطين فيه ، وزاد هذا في عدد الوافدين من جدالة ولمتونة وغيرها من القبائل الأخرى ، استقطبتهم شخصية الأمير وهدفه السامي ، فتكونت بذلك جماعته سماها بالمرابطين (1) ولم يكن هدفه من هذه التسمية ذا طابع ديني صرف بقدر ما كان يخضع لتنظيم وفق ماتتطلبه الخطة المستقبلية للتغيير ، فتكاثر العدد مع مرور الأيام حتى بلغ ألف مرابط (2) جلهم من أشراف صنهاجة مكونين بذلك مجموع تلامذته وأتباعه الملتزمين .

كان رباط ابن ياسين وكبقية الرباطات الأخرى مدرسة يتعلم فيها الفرد ويتربى وفق الغاية التي من أجلها أقيم الرباط ، ومن أبرز شروط هذا الأخير هي طهارة النفس والقوة والقدرة على تحمل المشاق والصبر والجلد وثالثهما هي إنكار ما كانوا عليه من قبل والدخول إلى الإسلام من جديد ، وهي شروط تجعل من المرابط في الأخير يخضع لسلطة الأمير إلى حدود الطاعة العمياء ويقصى عن الرباط كل من لم تتوفر فيه هذه الأوصاف ، ويحتفظ بالعناصر التي استطاعت تخطي هذه العقبات بتفوق وإخلاص وهي خطة تعكس لنا حذق زعيمهم في عملية انتقاء الأتباع والأنصار.

ذاع صيت الزعيم والرباط في جميع أقاصي البلاد والقبائل،

---

1 - ابن خلدون ، العبر ، المجلد السادس ، ص 374 و 375
ابن عذاري ، البيان ، المجلد الرابع، ص 12.
ابن الأثير : محمد بن محمد - الكامل في التاريخ ، المجلد التاسع، ص 620، دارصادر بيروت 1979.

2 - ابن أبي زرع ، القرطاس ، ص 79.

فبدأ أفرادها يفدون عليه ، وتشكلت قوة عسكرية تعمل على توفير الحماية والأمن والإستقرار للتجار والقوافل ، فتشجعت على المرور بهذا الطريق دون خشية أي خطر فكان ذلك أن أدى إلى ازدهار الحركة التجارية على حساب الرحلات التي كانت تقطع المسافات في اتجاه بلاد السودان والتي كانت تعاني من عدة أخطار أمنية وطبيعية ، فكان هذا التحول عاملا مهما في حصول الرباط على موارد مالية لتغطية حاجياته العسكرية.

بعد ضمان مورد مالي عن طريق التجارة والقوافل، أصبحت الظروف مواتية لعبد الله بن ياسين إعلان الجهاد ضد الخصم قائلا لأصحابه : "وجب عليكم أن تجاهدوا في سبيل الله حق جهاده وأن تقاتلوا هؤلاء القوم الذين خالفوا الحق وأنكروا دين الإسلام (1) بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر بمرجعية القرآن الكريم والسنة ومبادئ المذهب المالكي ، مخاطبا أنصاره قائلا " : أخرجوا على بركة الله تعالى وانذروا قومكم وخوفوهم عقاب الله وأبلغوهم حجته ، فإن أتابوا وأنابوا ورجعوا إلى الحق وأقلعوا مما هم عليه فخلوا سبيلهم "، وخرج إليهم الأمير بنفسه فجمع أشياخ القبائل ورؤسائهم وقرأ عليهم حجة الله تعالى ودعاهم إلى التوبة وخوفهم عقاب الله ، فأقام ينذرهم سبعة أيام وهم في كل ذلك لا يلتفتون إلى قوله ولا يزدادون إلا فسادا "(2) والنص يكشف أن عملية الإصلاح عند المرابطين لم تجد أذنا صاغية لدى القبائل اللمثونية ، للإقتناع والعدول عما هم فيه مما دفع بالأمير عبد الله بن ياسين إلى الخروج إليهم بنفسه للوعظ والإرشاد ، لكنه هو نفسه لم يجد إقبالا بقدر ما وجدهم متمسكون مما هم عليه من هرطقة وغي وخروج عن الجادة .

---

1 - نفس المصدر والصفحة .

2 - نفس المصدر والصفحة .

رافقت عملية الوعظ والإرشاد عملية إصلاحية بشؤون المال والجباية استفادت منه الطبقة المعدومة من سكان القبائل ، كما رفع المظالم عنها واكتفى بالجباية الشرعية فكان ذلك متنفسا للمظلومين التعساء ، وأثر في نفوسهم ، كما كان عاملا مهما في استقطاب المزيد من العناصر البربرية إلى صفوف حركته فكثر بذلك أنصاره (1).

واستكملت قوته العسكرية التي أصبحت في درجة من النظام والكفاءة لبداية عملية توحيد قبائل العصبية الصنهاجية .

كان خروجه في أول عملية عسكرية جهادية بثلاثة ألاف مرابط (2) وكانت وجهته هي قبيلة جدالة التي كانت قد تآمرت عليه أرستقراطيتها مع بعض فقهائها، فأذعنت للطاعة عام 434 هـ 1042 م معلنة إسلامها ، وبعدها قبيلة لمتونة التي بايعته على الكتاب والسنة وفي الأخير خضعت له قبيلة مسوفة التي بها تمت عملية توحيد فروع قبيلة صنهاجة (3) وبذلك يكون قد استكمل توحيد القوة الجديدة لهذه العصبية التي ستكون سندا قويا في قيام دولة المرابطين .

لم تستطع عملية التوحيد هاته أن تضع حدا للنعرات القبلية ، وحب السلطة والإمارة والعمل على بقائها فيهم ، إذ بمجرد مبايعة يحيى بن عمر اللمثوني سنة 440 هـ 1048 /م أعلنت قبيلة جدالة عصيانها لخروج الإمارة منها إلا أن الأمير ضرب بيد من حديد حتى رجعت إلى الطاعة (4) حتى لا ينفرط عقد العصبية الصنهاجية، كما أن اختيار أمير لمتونة يحيى بن عمر كان موفقا فقد كان يطيعه عبد الله بن ياسين إلى حدود الطاعة العمياء ، وإقامة الحد عليه في زلة لا يمكن معالجة نتائجها ، وتورد النصوص التاريخية رواية في

---

1 - ابن خلدون ، العبر ، المجلد السادس ، ص 374.
2 - ابن أبي زرع ، القرطاس ، ص 79 ، ابن خلدون ، المصدر السابق ص 375.
3 - ابن خلدون ، المصدر السابق ، المجلد السادس ، ص 375
4 - البكري ، المغرب ، ص 167.

هذا الشأن وهي تعكس وجها من وجوه الزعامة العسكرية لدى الأمير عبد الله بن ياسين ، فقد قال له : في بعض الحروب "أيها الأمير إن عليك حقا أدبا فقال له يحيى وما الذي أوجبه علي ، قال له عبد الله إني أخبرك به حتى أؤدبك وآخذ حق الله منك ، فطاع له الأمير بذلك وحكمه في بشرته فضربه الفقيه ضربات بالسوط ثم قال له : الأمير لا يدخل القتال بنفسه لأن حياته حياة عسكره وهلاكه هلاكهم "(1) وجاء عند ابن أبي زرع " إنما ضربتك لأنك باشرت القتال وأمضيت الحرب بنفسك وذلك خطأ منك فإن الأمير لا يقاتل وإنما يقف يحرض الناس ويقوي نفوسهم فإن حياة الأمير حياة عسكره وموته فناء جيشه" .(2)

لم يمر عقد من السنين على نشأة حركة عبد الله بن ياسين حتى اشتد عود زعيمها وجعلت منه " رجلا شهما قوي النفس حاذقا ذا رأي وتدبير حسن ، ذكيا نبيلا من أهل الفضل والدين والورع جريئا أديبا تقيا وتقواه لا تخلو من سياسة ، شخصية مهابة الجانب(3) كما هو الشأن بالنسبة لعصبية صنهاجة التي توحدت وقويت وأصبح خبرها يعم الآفاق ويحسب لها حساب.

استتب له الأمر فيها وأصبح زعيمها الروحي والعسكري يسير أمورها ، فتشبثت به وبخطته السياسية التي كشفت له عن ضعف الكيانات السياسية المجاورة لها، فكان أن يستفيد بالواقع ليعلن عملية الجهاد العسكري عليها وكانت بداية مشواره هي مملكة غانة،ومدينة أودغشت في عام 446 هـ 1054/م،ووازتها في نفس السنة حملة يحيى بن عمر في اتجاه الشمال (4).

أكدت تجربة غانة والشمال لعبد الله بن ياسين استقامة

1 - نفس المصدر والصفحة .
2 - روض القرطاس ، ص 79 و 80 .
3 - نفس المصدر ، ص 78.
4 - البكري ، المصدر السابق ، ص 168، ابن خلدون ، العبر ، المجلد السادس ، ص 376.
ROBERT MANTRAN . LES GRANDES DATES DE L'ISLAM P 44. PARIS 1990.

لمتونة وجدهم واجتهادهم فأراد أن يظهرهم ويملكم بلاد المغرب فقال لهم : " إنكم قد غزوتم ونصرتم دين محمد صلى الله عليه وسلم وقد فتحتم ما كان أمامكم وستفتحون إن شاء الله ما وراءكم "(1) فكانت أولها منطقة سجلماسة ودرعة خصوصا بعد وصول كتاب وكاك اللمطي بما نال المسلمين من العسف والجور من حكام بني وانودين المغراويين محرضا إياهم على قدومهم إليها لإصلاح أحوالهم ورفع المظالم عنهم ، فقصدها في جيش ضخم ناهز خمسين ألفا بين راكب وراجل ، مارا بدرعة ثم سجلماسة ، أسفرت المواجهة عن انهزام مسعود بن وانودين أمير مغراوة وصاحب سجلماسة ، فدخلوها وأصلحوا من أحوالها وغيروا المنكرات وأسقطوا المغارم والمكوس واقتضوا الصدقات(2) وعينوا عليها أميرا منهم هو يحيى بن عمر ، فعادوا إلى صحرائهم(3) إلا أن زناتة المغراويين زحفوا على سجلماسة فدخلوها وقتلوا من كان بها من اللمتونيين في المسجد الجامع ، فبعث الأواخر برسلهم إلى عبد الله بن ياسين يخبرونه بما فعلت زناتة بهم وطلبوا منه القدوم ليأخذوا ثأرهم منهم .(4) إلا أن هذه العملية لم تكن بالسهولة بمكان ، فقد قتل فيها كبير أمراء اللمتونيين يحيى بن عمر وبشر كثير (5)، في موضع تزعم الرواية أنهم يسمعون فيه أصوات المؤذنين عند أوقات الصلاة ويحترمونه ولا يدخله أحد منهم (6).

لم يمنع مقتل يحيى بن عمر عبد الله بن ياسين على المضي قدما في تحقيق مشروعه السياسي ، إذ عين أبا بكر بن عمر اللمتوني

---

1 - ابن عذاري ، المصدر السابق ، الجزء الرابع ، ص 13.
2 - ابن خلدون ، المصدر السابق ، المجلد السادس ، ص 375.
3 - ابن عذاري ، المصدر السابق ، الجزء الرابع ، ص 13.
4 - نفس المصدر والجزء والصفحة.
5 - نفس المصدر والجزء ، ص 15.
6 - نفس المصدر والجزء والصفحة.

على درعة وتوجه بنفسه إلى سجلماسة ليأخذ له البيعة من أهلها بعد وصوله لها في مفتتح عام 450هـ ، فلم يلبث وقتا طويلا حتى خرج منها بعسكره إلى درعة ليأخذ منهم ما أوجب عليهم من الزكاة والفطرة ، غير أن قوما من زناتة امتنعت عن ذلك مما دفعه إلى حربهم وهزمهم فغنم إبلهم ومواشيهم وولى عليهم رجلا من خيار لمتونة تاركا معه جمعا كبيرا وعادوا إلى سجلماسة [1]

بعد أن استتب الأمر لأبي بكر بن عمر في سجلماسة ودرعة، انصرف الأمير عبد الله بن ياسين إلى بلاد المصامدة وغيرها لمعرفة أحوال القبائل بها ومنها إلى بلاد تامسنا فوجدهم على ما كانوا عليه من الفتنة إبان مروره بهم في عودته من الأندلس ، ودخل معهم في حوار قائلا لهم : " لا تعرفون أنه من مات منكم في هذه الحروب الجاهلية فإنه من أهل النار ، فوعضهم وقال لهم : " اتقوا الله وارتدعوا عما أنتم عليه من فتنتكم وقدموا على أنفسكم من يؤلفكم "فقالوا له : " ما هو فينا ...ولا في قبائلنا إلا كل قبيلة منا ترى أن يكون الأمير منها " فقال لهم : " إن أنتم سمعتم مني أدلكم على رأي صالح يصلح الله به أحوالكم هذا أمير لمتونة الصحراء أهل الزهد والورع ـ وقد كانوا سمعوا به ـ وما أصلح الله من البلاد على يديه فانعموا له وأخذ عليهم العهود والمواثيق بذلك.[2]

ولا شك في أن رحلته مكنته من تتبع عن قرب أحوال المصامدة وقبائل برغواطة ، من تفتت في قواهم وعدم إئتلافهم حول أمير منهم يدبر أمورهم مما جعله يرجع إلى سجلماسة ليخبر بذلك الأمير أبي بكر بن عمر ليتأهب لعملية توحيد البلاد ، فكانت البداية من سوس حيث مواطن مصمودة فاستولى على

---

1 - نفس المصدر والجزء ص 15.

2 - نفس المصدر والجزء والصفحة.

تارودانت وماسة وكان ذلك عام 448 هـ 1056م – 1057م (1) وبعدها توجه إلى الأطلس الكبير لإخضاع بقايا القبائل المصمودية، حيث بايعته بعضها في عام 449هـ/ (1057 - 1058 م) وفي السنة نفسها غزا منطقة أغمات التي كانت تحت نفوذ المغراويين فهزمهم(2) وتزوج منهم ، وأخذ البيعة لأميره عبد الله بن ياسين.

شجعت انتصارات الأمير على القبائل المصمودية على السير قدما في اتجاه منطقة تادلة (3) والسهول الأطلسية لمنازلة بني يفرن الزناتيين وإخضاعهم لسلطته وبعدها دخل في حرب مع البرغواطيين في منطقة تامسنة ، حيث لقي حتفه في عام 450 هـ – 451 م / 1058 م – 1059 م ودفن بموضع فيها يسمى كريفلة.(4)

لم تثن وفاة الزعيم عبد الله بن ياسين من عزم أتباعه في المضي قدما لتحقيق مشروعه السياسي الوحدوي، خصوصا وأنه وضع أسسا متينة له تجلت في توحيد العصبية اللمثونية الصنهاجية كمرحلة أولى وبعدها شرع في عملية التوسع في اتجاه الجنوب

---

1 - ابن خلدون ، العبر ، المجلد السادس ، ص 376.

2 - نفس المصدر والمجلد والصفحة.

3 - نفس المصدر والمجلد والصفحة.

4 - البكري ، المصدر السابق، ص 168، ابن عذاري ، نفس المصدر والجزء، ص 16.

اختلفت الروايات التاريخية حول موت الأمير عبد الله بن ياسين .وينفرد ابن أبي زرع في روايته ، بإسهابه في وصف حروبه مع البرغواطية ومقتله في إحدى المعارك متأثرا بجراحه يوم الأحد 24 جمادى الأولى من عام 451 هـ 1059 م وتمت عملية دفنه في موضع يقال له كريفلة. ابن عذاري ، البيان ، جزء 4 ، ص 16 ، هامش 1

أما الروايات الأخرى فإنها ترى غير ذلك ، بأن الأمير عبد الله بن ياسين توجه إلى سوس ليصلح بين إخوته في فتنة فأصابه مرض فقضى نحبه ووصل نعيه إلى أغمات ، ابن عذاري ، البيان ، جزء 4 ، ص 15 ، ابن خلدون ، العبر، المجلد السادس ، ص 376 ، ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، جزء 9 ص 621 .

أما كريفلة فهو مصطلح بربري يتكون من اسمين : الأول كري وتعني المرتفع او الجبل وأحيانا الكدية، وأيفلة فتعني الإرتفاع والعلو الشاهق ، وأحيانا يطلق الإسم على كدية أو شبه جبل مرتفع بين هضبة زعير وزمور ومعاينة المكان تثبت على ما جاء في معنى المصطلح البربري، بحيث يصعب الوصول إليه بسهولة ويتبين أن المكان كان ذا استراتيجية عسكرية تصدر منه الأوامر للجيش وتراقب منه تحركات جيوش برغواطة ، مما يدفعنا إلى القول بأن الأمير قد قتل فيه ، أو أنه تم نقله بعد أن أثخن جراحا حتى لا ينتشر خبره بين صفوف المرابطين وتتشتت قواهم ويتم انهزامهم، كما أن الأشغال الجارية حاليا في هذا المكان كشفت عن وجود مقبرة قديمة به ولا ندري اهي مرابطية أم متأخرة زمنيا عن هذا العصر. كما أننا لا ندري كيف انتقل مصطلح كريفلة من اسم مكان إلى استعماله كاسم لنوع من أنواع الحنطة في بعض مناطق المغرب ، ولا شك أن لمنطقة تامسنا وثقافتها البربرية علاقة بهذا الاستعمال.

(اودغشت وغانا) لضمان مورد مالي للدولة الناشئة ، ثم بعد ذلك قوض من نفوذ الزناتيين المتواجدين بدرعة وسجلماسة كمرحلة ثانية لضمان تمركز الطرق التجارية في قبيلة لمثونة الصنهاجية ، وكآخر مرحلة توجه نحو الشمال دكالة ، أغمات لإخضاع المصامدة ، وبعدها السهول الأطلسية ، فترك وراءه أرضية مهيئة لقيام دولة مغربية موحدة لأرجائه تحت قيادة رجال منها ورثوا عنه صفات الزعامة والعمل من أجل تحقيق الهدف الوحدوي لبلاد المغرب على يد رجال ينحدرون من القبائل والعصبيات البربرية أمثال أبي بكر بن عمر ويوسف بن تاشفين صانعي الملاحم التاريخية المغربية ، فاكتملت بذلك معالم الزعامة والوحدة لبلاد المغرب مباشرة بعد تأسيس مدينة مراكش عام 454 هـ 1062/م وإعلانها عاصمة للدولة الناشئة التي وضع لبنتها الأولى المصلح والزعيم عبد الله بن ياسين مهدي المرابطين.

عبد الله بن ياسين مؤسس الدولة المرابطية

أحمد الشكري

ارتبط إسم عبد الله بن ياسين بنشأة وقيام الدولة المرابطية. والحديث عن التأسيس وبداية أمر الدول في المصادر القرسطوية، غالبا ما يلف في هالة من القدسية التي تنزع عن الحدث تاريخيته، وتدفع به في اتجاه الهلامي الذي يصعب تسييجه أو تأطيره زمانيا ومكانيا.

وإذا أضفنا إلى هذا، قلة وفقر المادة المصدرية المتعلقة بالمرحلة الصحراوية من تاريخ الحركة المرابطية وإمامها عبد الله بن ياسين، فضلا عن تأخر الكثير منها عن زمن الحدث بأكثر من قرن أو حتى ثلاث مائة سنة، ترتسم أمام الباحث المهتم بالموضوع شبكة الصعوبات التي عليه أن يواجهها ويكافحها.(*)

وباعتبار هذه المعطيات الجافة والمعيقة، وباستحضار اللثام الذي لزم وجوه صنهاجة الصحراء، يتهيأ لنا - ونحن في وسط صحراوي شفاهي- أن استعمال اللثام أريد به الحؤول بيننا وبين حقيقة وجوههم، كلما أوكما حاولت الروايات المدونة أن ترسمها لنا. فهل استعمل ابن ياسين اللثام حين إقامته بالصحراء بين ظهراني صنهاجة؟

1 - السبب في دخول عبد الله بن ياسين صحراء صنهاجة

في راوية مشهورة تداولتها جل مصادرنا، نستفيد أن رئيس

---

* لن نتوقف هنا عند القضايا التي أثارها وعالجها باحثون سابقون، مثل مشكلة موقع رباط عبد الله بن ياسين، وتحديد مفهومي "الرباط" و"المرابطين"، والسبب في انهيار أودغشت وغانة، وغير ذلك من القضايا التي أصبحت متداولة في الدراسات المتأخرة. ونحيل القارئ على اللائحة البيبليوغرافية في آخر المبحث.

الحلف الصنهاجي الثالث يحيي بن ابراهيم الجدالي قد استخلف ابنه، وخرج قاصدا المشرق برسم حج بيت الله الحرام عام 427هـ/ 1036م. وفي طريق عودته بعد قضاء فرضه، توقف بالقيروان للأخذ عن شيخ المالكية بها أبي عمران الفاسي.

ومعظم الشهادات المتوفرة لدينا عن لقاء الرجلين بإفريقية، حاولت إقناعنا - بوعي مقصود أو غير ذلك - بأن صنهاجة اللثام في بداية القرن 5 هـ/ 11م، كانت غارقة في الجهل بواجباتها الدينية، وأنها لم تكن تعرف من الإسلام سوى الشهادتين ! وفي هذا الإطار، طلب الزعيم الجدالي من أبي عمران أن يوفد معه إلى الصحراء من يراه أهلا لتصحيح وتعميق معرفة صنهاجة بالشرائع الإسلامية غير أن الطلبة القيروانيين استصعبوا دخول الصحراء مع يحيى، مما جعل أبو عمران يكتب رسالة لتلميذه واجاج بن زلو اللمطي شيخ رباط نفيس، أوصاه بالأمير وطلب منه تحقيق رغبته.

وفي أحد شهور عام 430هـ/ 1039م، وصل يحيى بن إبراهيم الجدالي إلى الرباط المذكور، فاجتمع بواجاج ودفع إليه الكتاب. وبعد الترحيب والإكرام، اجتمع الشيخ بتلامذته وقرأ عليهم الرسالة، ثم انتدب منهم عبد الله بن ياسين لمرافقة الأمير إلى بلاد صنهاجة. وقد استحسن الطالب اختيار شيخه وقبله دون تردد، بل إنه أظهر حماسا حسبما يستشف من رواية صاحب القرطاس.

2 - عبد الله بن ياسين وانطلاق الحركة المرابطية

ما تحت أيدينا من معلومات مصدرية، لايسمح لنا كفاية باستكشاف شخصية عبد الله بن ياسين وتكوينه الثقافي. والقليل مما نعلمه، يدلنا على أنه من أهل سوس، وباعتبار أصل ومنشإ أمه

تين يزامارن، ثم بحكم العلاقات التجارية القديمة بين سوس وبلاد السودان، يمكننا القول بأن الصحراء كمعطى جغرافي وبشري ليست غريبة عنه.

دخل الأندلس في عهد ملوك الطوائف (399 - 480 هـ)، وأقام بها سبع سنين، حصل خلالها على علوم كثيرة حسب تعبير ابن عذاري. ويظهر أنه أخذ عن عدد من فقهاء المالكية بالأندلس، بيد أن المصادر تستعظم علينا الإحاطة بأسماء ومكانة شيوخه.

ولاريب أن فترة إقامته بالعدوة، مكنته من الوقوف على الأوضاع المزرية التي أصبح عليها المسلمون، نتيجة الفوضى السياسية والاجتماعية، التي عمت بلاد الأندلس بعد انهيار الحكم المرواني ثم العامري عند نهاية القرن 4هـ/10م.

وهذه الحالة المؤلمة لواقع المسلمين، التي عايش عبد الله بن ياسين جزءا منها، لابد وأن تترك في نفسيته وهو الرجل المتشدد في دينه - أثارا عميقة. ولا نستبعد بهذا الصدد، أن يكون ذلك الواقع الأندلسي برعونته. ومعاناته، قد شكل الحافز الأساسي، الذي رمى بابن ياسين عند عودته للمغرب في أحضان واجاج بن زلو، شيخ رباط نفيس ومؤسسه، وأحد أعمدة التصوف المغربي وقتئذ. وكما يذكر ابن الزيات التادلي في تشوفه، فقد كانت "دار المرابطين "في نفيس معدة "لطلبة العلم وقراء القرآن "

والمغارب الثلاث حينئذ لم تكن بأحسن حال من الأندلس. من ثمة نقف حدسا على أن شبكة العلاقات التي انتظمت مجموع هؤلاء الرجال من فقهاء وشيوخ وزعماء وطلبة، كانت منبنية على حس موحد مذهبيا وسياسيا واقتصاديا.

كما تقدم، فقد أظهر عبد الله بن ياسين حماسا حينما

اختير لمرافقة الزعيم الجدالي إلى الصحراء. وبمجرد وصوله لديار جدالة اندفع لمباشرة المهمة التي جاء من أجلها. غير أن تشدده - مثل الكثير من فقهاء عصره - في عملية تقويمه وإصلاحه، جعله في بداية أمره عرضة لنقمة فقهاء ورؤساء جدالة، حيث وجدوا في أحكامه بعض التناقض على قول البكري.

والمثير في هذه الواقعة (قبل 434 هـ/1042م) أن صنهاجة بجهلهم المزعوم كما صوره لقاء القيروان، أصبحوا بعد أقل من خمس سنوات على وصول عبد الله بن ياسين إليهم، متمكنين من أصول الفقه المالكي، وقادرين على تتبع سقطات فقيه درس بالأندلس سبعة أعوام، وتتلمذ في رباط نفيس على يد أحد أقطاب الفقه والتصوف المغربي : وجاج بن زلو اللمطي تلميذ شيخ المالكية بإفريقية أبي عمران الفاسي!

وعلى إثر ثورة جدالة وما ترتب عنها من تشريد الإمام المصلح، فزع عبد الله بن ياسين إلى شيخه واجاج، ثم عاد برسالة تتضمن كتابا وأوامر مكنته من استرجاع هيبته وسلطته.

وفي هذا العتاب والأوامر ما يؤكد العلاقة القديمة بين واجاج كفقيه ومعلم وبين زعماء وشيوخ صنهاجة كطلبة. الشيء الذي يوضح لنا المكانة الرفيعة والسلطة الروحية الكبيرة التي يتمتع بها شيخ رباط نفيس لدى صنهاجة. وفي هذا الإطار، يحق لنا القول بأن وصول ابن ياسين لصحراء صنهاجة، لا يمثل سابقة في علاقة واجاج بالمنطقة، وإنما فقط، حلقة من حلقات العلم والتواصل المنتظم بينهما. ولدينا من القرائن ما يحمل أكثر من دلالة في هذا الاتجاه، نذكر منها اختلاف الروايات التاريخية حول الشخص الحقيقي الذي جلب عبد الله بن ياسين لديار جدالة، وكذلك عدم إشارة القاضي عياض السبتي إلى لقاء القيروان أثناء ترجمته لابن ياسين.

ويذكر ابن أبي زرع أنه بعد نقمة جدالة على شيخهم وعزلهم له، أعرض عنهم وابتنى رباطا قصد التعبد، انزوى فيه مع نفر من جدالة. ويظهر أن عبد الله بن ياسين تمثل رباط نفيس، واتخذ منه نموذجا احتذى به في تسيير أمور رباطه. فتسامع الناس بأخباره، ثم أخذوا يتوافدون عليه، وبعد ثلاثة أشهر، وجد نفسه محاطا بمئات الطلبة من أشراف صنهاجة.

وبينما الإمام يستقبل هذه الأعداد الغفيرة ويشحد عزائمها، ظهر له أو أحس في نفسه القدرة على مواجهة من خالفه من القبائل الصنهاجية، فخرج إليها بأصحابه، وتمكن في بداية العقد الخامس من القرن 5هـ/11م من إخضاع جدالة ومسوفة ولمتونة على التوالي. وعلى إثر ذلك، تمت مبايعته كإمام لصنهاجة، في حين احفتظ الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي – بشكل صوري – بمنصب إمارة الجند. وباستحكام الأمر للإمام، تفرغ لبعض الأعمال ذات الصبغة الاجتماعية، تجسدت في بنائه لمدينة أرتنني، مما حفز أحد الزعماء اللمتونيين هو الآخر لتشييد مدينة جديدة : أزكي. وهذه النهضة العمرانية، تأتي في سياق التحولات الديمغرافية والاقتصادية التي كانت تشهدها المنطقة. وعلى مستوى التنظيم السياسي، نجد عبد الله بن ياسين يجتهد في إقصاء الزعامات الجدالية من قيادة الحلف الصنهاجي، خاصة بعد وفاة الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي وتعويضه بيحيى بن عمر اللتموني، الشيء الذي كان له أ ثر واضح في توجه الحركة المرابطية نحو الشمال، وبالتالي فقدانها لمساندة جدالة في مشروع فتح وتمهيد المغرب.

3 - فتوحات عبد الله بن ياسين واستشهاده

باستقراء وتحليل المادة المصدرية، يتبين لنا أن أهم عمل

سياسي وعسكري قام به الإمام وخلفاؤه في تجاه الجنوب، تمثل في غزو واسترجاع مدينة أودغشت من سلطة ملك غانة عام 446 هـ /1054م. وبالنظر إلى اندحار الدور التجاري لأودغشت، بسبب ابتعاد الطرق التجارية عنها نحو المشرق، لم تعد المدينة تمارس أي إغراء سياسي أو اقتصادي. لذلك تخلى عنها عبد الله بن ياسين وتركها لمصيرها (الاندثار)، وتوجه إلى الشمال - بدون جدالة - لفتح وغزو مناطق مختلفة من درعة وسوس.

وإذا استثنينا المقاومة الشديدة التي أبدتها العناصر الزناتية أثناء غزو الإمام لسجلماسة عام 447هـ/1055م، فإن تمهيده للمناطق المطلة على الضفة الشمالية لصحراء صنهاجة سياسيا، تم دون كبير عناء. وفي غمرة هذه النجاحات العسكرية، قامت ثورة جدالة في الصحراء عام 448هـ/1056م، وألحقت هزيمة نكراء بالجيوش المرابطية، كان من بين مخلفاتها مقتل الأمير يحيى بن عمر اللمتوني، و" لم يكن للمرابطين بعد كرة إلى بني جدالة " حسب تعبير البكري .

وعلى الرغم من هذه النكسة المفجعة، أخذ ابن ياسين في الاستعداد لمواجهة برغواطة في تامسنا، ويبدو أن القضاء على هذه النحلة التي طالما أزعجت المسلمين في الغرب الإسلامي، كان يمثل الهدف الأساس في سياسته منذ بداية أمره، وكأننا به يريد تحقيق حلم طالما حدثه عنه شيخه واجاج في رباط نفيس. ولبلوغ الغاية المقصودة، حاول الإمام تنظيم صفوفه بتنصيب الأمير أبو بكر بن عمر اللمتوني على رأس الجند خلفا لأخيه المقتول؛ واجتهد في كسب بعض القبائل إلى صفه في حربه ضد برغواطة، حيث نجح في استمالة مصمودة التي كانت على علاقة وثيقة (مثل صنهاجة) بشيخه واجاج.

وبعد هذه الاستعدادات والترتيبات التي تبرهن على مدى

وعيه بقوة وقدرات الخصم، خرج مندفعا نحو تامسنا يريد ترجمة الحلم الكبير أو الاستشهاد دونه. وفي لحظة من لحظات المواجهة مع برغواطة، أقبل على العدو بعزم أجرأه على تناسي أو تجاهل الحكمة التي أدب من أجلها يحيى بن عمر، والتي تقضي بتخلف الأمير أثناء المنازلة، فاستشهد في إحدى معاركه ضد برغواطة عام 451هـ/1059م. ودفن قريبا من وادي كريفلة بناحية زعير (على بعد حوالي 40كلم من مدينة الرباط)، حيث أقيم له ضريح هنالك على قمة تلية.

حقا، لقد ارتبط اسم عبد الله بن ياسين بنشأة وقيام دولة المرابطين، غير أن الذي استقر في النفوس المتشوفة والقلوب المؤمنة بقضية هذا الإمام المصلح والشيخ المجاهد، يدفعنا لاعتباره رجل دعوة أكثر منه رجل دولة.

لائحة المصادر والمراجع

1 - المصادر :

-ابن أبي زرع (علي الفاسي)
الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبارالمغرب وتاريخ مدينة فاس.
الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة، 1973.

-ابن خلدون (عبد الرحمان)،
كتاب العبر وديوان المبتدإ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. بيروت، دار الكتاب اللبناني 1961.

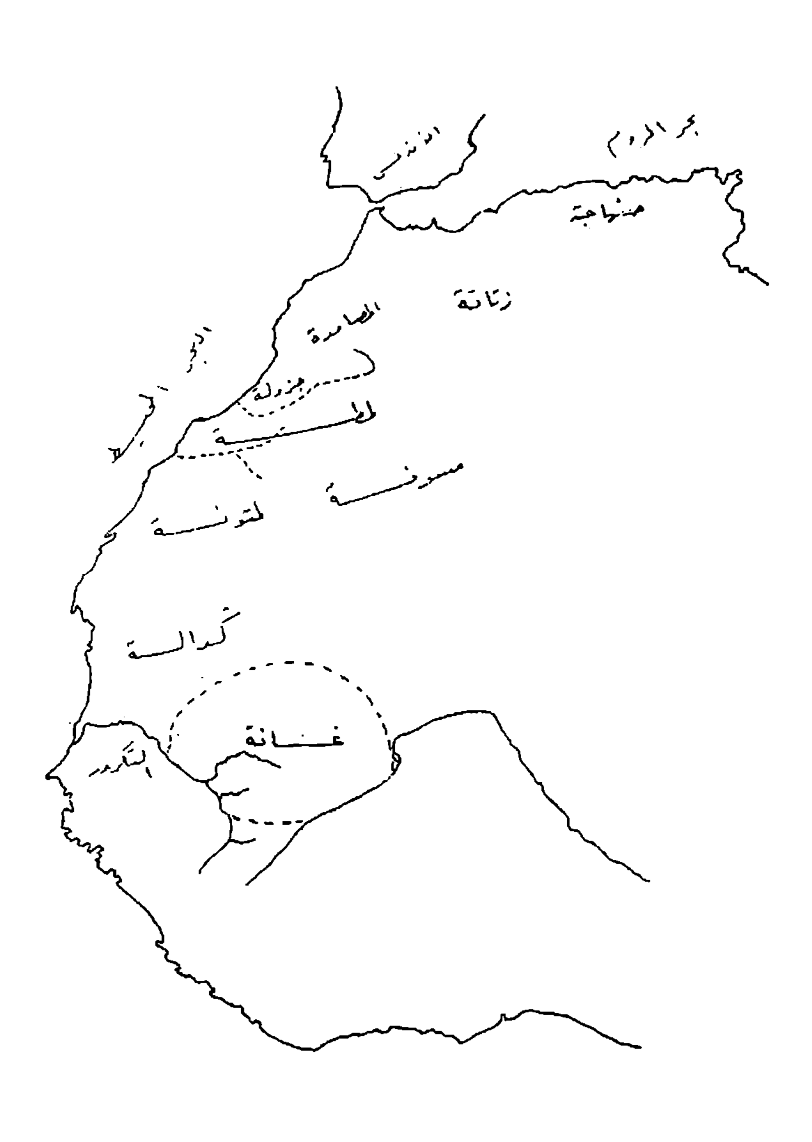
-ابن الزيات (يوسف بن يحيى التادلي)،
التشوف إلى رجال التصوف. الرباط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط. تحقيق أحمد التوفيق، 1984.

-ابن عذاري (أحمد بن محمد المراكشي)،
البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، بيروت، دار الثقافة، ط. 3، 1983.
-البكري (عبيد الله بن عبد العزيز الأندلسي)،
كتاب المسالك والممالك. تونس، الدار العربية للكتاب، بيت الحكمة. حققه وقدم له أدريان فان ليوفن وأندري فيري، في جزئين،1992.
-اليحصبي (عياض بن موسى السبتي)،
ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك. بيروت، 1965، تحقيق أحمد بكير محمود، في 5 أجزاء.

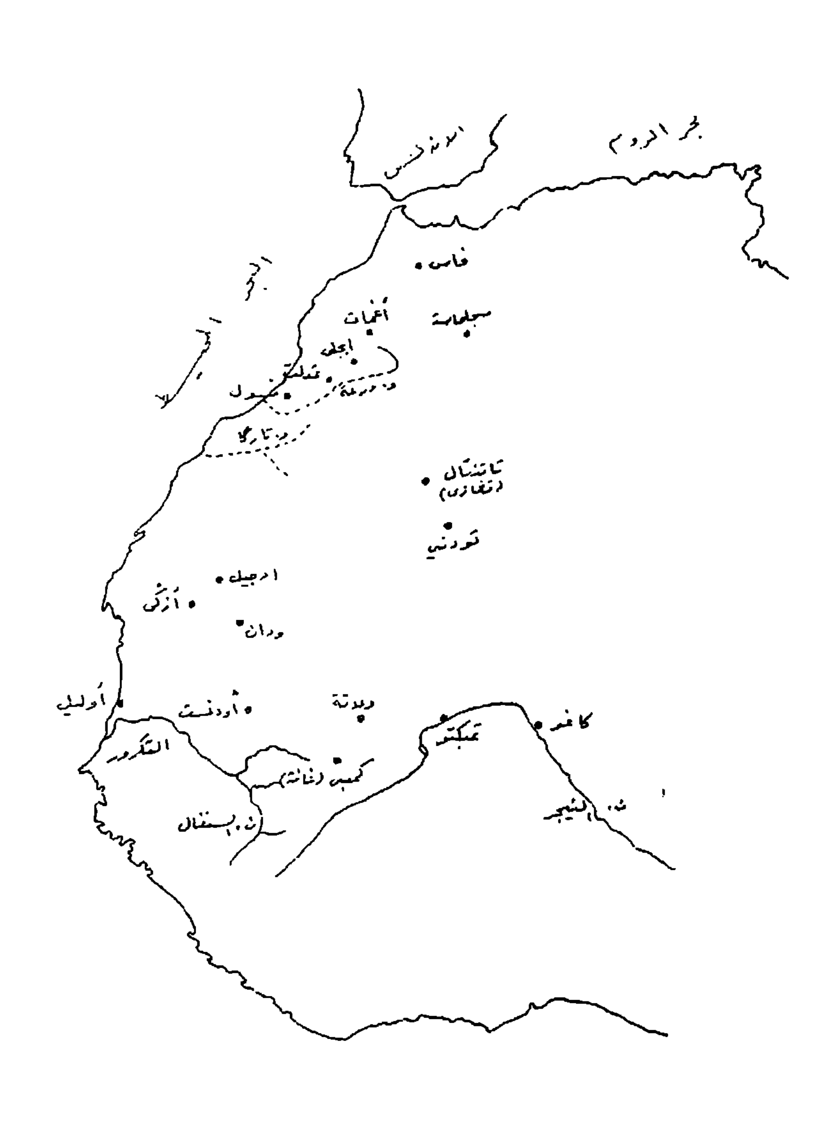
2-المراجع العربية:
بوتشيش (إبراهيم القادري)،
المغرب والأندلس في عصر المرابطين. بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، 1993.
-دندش (عصمت عبد اللطيف)،
دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا. بيروت، دار الغرب الإسلامي، السلسلة الجامعية، 1988.
- الشكري (أحمد)،
مملكة غانة وعلاقتها بالحركة المرابطية (هل حقا قام المرابطون بغزو غانة ؟)،
منشورات معهد الدراسات الإفريقية بالرباط.الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة،1997.

3-المراجع الأعجمية :
Devisse, J. Denis, R. Robert, S, Tegdaoust I, Re-

cherches sur Aoudagost, paris, A.M.G.1970.
-Ivan Hrbek et Jean Devisse,
les Almoravides. In Histoire Générale de
l'Afrique, Paris, UNESCO / NEA, vol.
III, ch. 13, 1990.
- Moraes Farais, F.F (De),
the Almoravids : Some questions concerning
characters of the movement during its
period of clased contact with the western sudan,
B.IFANB. XXIX, 1967, pp.794-917.
Norris, H.T,
Abdullah Ibn Yasin (m.1059) et la dynamique
Conquerante des Almoravides. In les .
Africains, Paris, Ed. Jaguar, T. XII, 1977, pp. 15-39.



خريطة 1 : مواطن القبائل بالمغرب والصحراء في القرن 5 هـ.



خريطة 2 : أهم المراكز الحضرية بالمغرب والصحراء في القرن 5 هـ.

جهاد عبد الله بن ياسين والحركة المرابطية

أ .علال الخديمي

يشكل ظهور الحركة المرابطية وامتدادها من الصحراء إلى شمال المغرب الأقصى وإلى باقي بلاد شمال افريقيا،حدثا فاصلا في تاريخ هذه المنطقة.

فمنذ ظهور الدولة المرابطية بشمال إفريقيا ، بدأت أحداث تاريخ المنطقة تجري وتتطور بمعزل عن التأثير السياسي للمشرق أي بلاد الخلافة الإسلامية ، والتطور الهام الذي حصل هو أنه مع بداية الدولة المرابطية أصبح المغرب الأقصى هو منبع الإمبراطوريات الجديدة .وبدأت تترسخ فيه مبادئ الوحدة الوطنية منذ ذلك العهد .

أولا : الوضعية السياسية بالمغرب الأقصى قبيل ظهور الحركة المرابطية

منذ نهاية الدولة الإدريسية ، أصبح المغرب موزعا إلى دويلات وإمارات شبه مستقلة ومتنافسة ، وكانت هذه الإمارات في معظمها من أصول زناتية .

فبنو عطية المغراويون كانوا يحكمون بفاس ، وكانت أسر مغراوية تحكم تادلا (بنو يفرن) وأغمات (لقوط بن يوسف المغراوي)، وبسجلماسة ودرعة كانت إمارة بني مدرار تنشر نفوذها منذ حوالي 140 هـ ، كما كان الريف يخضع لإمارة النكور.

وكانت السهول الساحلية المجاورة للمحيط الأطلسي من عبدة إلى نواحي طنجة تخضع لنفوذ إمارة برغواطة التي كان

مركزها بمدينة أنفا وكانت برغواطة إمارة هامة بموقعها وغناها وطبيعة إيديولوجيتها.

إن هذا التقسيم والتجزيء السياسي لم يكن يعني أن المغرب كان يعيش في فوضى ، بل إن هذا الواقع السياسي الذي وصفناه باختصار شديد ، كان يستجيب لوضع سوسيو- اقتصادي خاص، ولوضع مذهبي غلب عليه تعدد النحل والمذاهب الأمر الذي يسمح لنا بالقول : إن كل قبيلة أو اتحادية قبائل غلبت عليها نحلة مذهبية في التدين ، حاولت أن تكون مستقلة في جهتها إذا ساعدتها الظروف الطبيعية والمادية .

ويجد هذا القول تفسيره ، في كون الحركة الخارجية بالمغرب قد ساهمت منذ القرن الثاني الهجري في زرع التجزيء المذهبي نتيجة لانقسام المذهب الخارجي نفسه إلى طوائف ونحل متجادلة ، تذهب من التطرف الحاد إلى الإعتدال . ويبدو لنا أن هذا الواقع المذهبي سهل ظهور نحل اختلط فيها الإسلام باليهودية وبقايا الوثنية مثلما تبينه حالة برغواطة.

والحاصل من كل هذا التقسيم الذي عرفه المغرب الأقصى قبيل ظهور المرابطين ، أن الإسلام كان هو الدين السائد رغم تعدد المذاهب ولذلك كانت البلاد تتطلع للوحدة السياسية والمذهبية وهو الأمر الذي سينجزه المرابطون بقيادة عبد الله بن ياسين .

ثانيا : مكونات الحركة المرابطية

اعتمدت الحركة المرابطية في توسعها وانتشارها على عنصرين أساسين ، العنصر الأول تمثله دعوة إصلاحية سلفية ، والعنصر الثاني يرتكز على مجموعة بشرية تمثلها اتحادية قبلية متجانسة الأصول والموطن .

1 - الملثمون

قاد المرابطين رجال ينتسبون إلى قبائل من الملثمين [1] صنهاجية الأصل صحراوية الموطن،أشهرها كدال ولمتونة ومسوفة[2] كانت هذه القبائل تعتمد على حياة الترحال والتنقل بحثا عن المرعى والماء ، وحيث يمكن تبادل منتجات القطيع والواحات بمنتجات غذائية أو صناعية تجلبها القوافل السيارة من بلاد السودان في الجنوب أو بلاد المغرب في الشمال. ويذكر المؤرخون أن الغذاء كان يندر أحيانا ، بحيث لا يعيش الناس إلا على اللحم والحليب وبعض الثمار.

وهكذا كان الملثمون يعيشون وضعية اقتصادية واجتماعية بسيطة في بداية القرن الخامس الهجري ، كما كانت الوضعية الدينية الثقافية أكثر بساطة وسطحية،على الرغم من اعتناقهم للإسلام منذ القرن الثالث الهجري [3].

ويظهر أن هذه الوضعية السائدة بين قبائل الصحراء ، قد دفعت بعض الشيوخ المتنورين إلى التطلع لإصلاح أحوال قومهم، وخاصة بعد أن تمكنوا من أداء مناسك الحج في البقاع المقدسة والتقوا بإخوانهم المسلمين وشاهدوا ما شاهدوا من علامات التدين الصحيح ، وقارنوا ذلك بأوضاع قومهم وما هم فيه من جهل بالدين وضلال عن سبيل الله القويم [4].

2 - فقيه مجاهد وداعية مصلح

فلما كان يحيى بن ابراهيم الكدالي أمير الملثمين عائدا من

---

1 - عن نسبهم أنظر كتاب "الحلل الموشية في الأخبار المراكشية "لمؤلف أندلسي من أهل القرن الثامن عشر ، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة ، الدار البيضاء 1979، ص 17 - 19

2 - تنقسم صنهاجة إلى لمتونة ـ كدالة ـ مسوفة ـ لمطة ـ مسراته ـ تكلاتة ـ بنو وارث إلخ ...

3 - تشير الروايات التاريخية إلى كثرة التدافع والقتال وتبادل الغارات بين القبائل الصحراوية .

4 - قارن كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية

الحج ، التقى بشيخ المذهب المالكي بالقيروان، الفقيه أبو عمران الفاسي(1) فأخذ عنه وأفتاه في أمور دينية ثم أبدى الأمير رغبته في أن يرسل معه الفقيه من تلاميذه من يعلم قومه القرآن ويفقههم في أمور دينهم .

ولما لم يجد الفقيه أبو عمران رغبة في أحد من تلاميذه بالقيروان ، نصح الأمير الصحراوي بالمرور على الفقيه واكاك بن زلو اللمطي(2) شيخ رباط نفيس(3) وأصحبه برسالة جاء فيها :

" إذا وصلك حامل كتابي هذا وهو يحيى بن ابرهيم الكدالي ، فابعث معه إلى بلاده من طلبتك من تثق بدينه وورعه وكثرة علمه وسياسته ليعلمهم القرآن وشرائع الإسلام ويفقههم في دينهم "

ولما عرض الفقيه واكاك الأمر على طلبته ، رشح واحد منهم نفسه للمهمة الصعبة وهو عبد الله بن ياسين بن مكو الجزولي.

أ – ثقافة الرجل وصفاته

تشير الروايات التاريخية إلى أن عبد الله بن ياسين سبق له أن سافر إلى الأندلس، حيث درس على يد فقهائها وحصل علما كثيرا خلال مدة سبع سنوات قضاها بالأندلس ، ثم عاد إلى بلاده (4) وقد كان ابن ياسين من "حذاق الطلبة الأذكياء النبهاء النبلاء من أهل التدين والفضل والتقا والورع والفقه والأدب والسياسة (5) كما كان مثين التدين مروضا نفسه على القناعة والزهد .

---

1 - أبو عمران الفاسي ، شيخ المذهب المالكي توفي عام 430 هـ .أنظر عنه - ابن أبي زرع ، الأنيس المطرب ، ص 118 ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون ، جـ 6، طبع بيروت 1956 ص 373.

2 - نسبة إلى قبيلة لمطة وهي قبيلة صحراوية كان قسم منها بواد نول وهي المنطقة التي ينتمي إليها وكاك بن زلو ، وإليها تنسب الدرق اللمطية .

3 - ابن أبي زرع ، الأنيس ص 123 ويشير ابن خلدون إلى أن واكاك كان بسجلماسة في حين يشير صاحب الحلل الموشية أن الفقيه واكاك كان بالسوس .

4 - الحلل الوشية ص 20

5 - ابن ابي زرع ص.123

وهكـذا فكل هـذه الصـــفـــات التي وردت فـي روايات الإخباريين ، قد تأكـدت من سيرة الرجل، وهي التي أهلته ليلعب دورا تاريخيـا حاسما في حـياة قبائـل صحراوية متـفرقة ومتنافـسة على الغلبة والرياسـة ، فأنشأ من الشـتات والفرقة وحـدة شاملة ، ومن التوحش والبداوة والغلظة ، حياة تهتدي بنور الإسلام وتتطلع إلى المعالي في ميادين الحضارة الإنسانية .

ب – جهاد عبد الله بن ياسين

بدأ عـبد الله بن ياسـين جـهاده مـعلما ومـربيـا فمنذ وصـوله للصحراء ، شرع في تعليم الناس مبادئ دينهم بالإعتماد على كتاب الله وسنة رسوله ، ومن أهم تلك المبادئ : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقد شدد ابن ياسين على الصحروايين في ترك عاداتهم السيئة ومألوفاتهم المنافية لـلسنة كشرط ليحسن إسلام المرء ، ولما ثقل أمره ونهيه على القوم نفروا منه ، وتزعم بعضهم معاكسته وبهذا هجرته الأغلبية "لما جشمهم من مشاق التكليف "(1).

ج – الرباط والمرابطون

عندما يـشتد الخـلاف وتخيم ظلمـات الجهل وتتـضارب الأهواء والأطماع ، يكون من الأفيد للفئـة الصالحة المهتدية بنور العلم والإيمان أن تعطي لنفسها فسحة من الوقت للتأمل والإعداد لإنجاح مشروعها الإصلاحي.

هذا ما فعـله عبد الله بن ياسين ، فـقد اعتزل القـوم هو وفئة قليلة ممن تبعـه واهتدى بهديه (2) وأسس رباطا وسط شبـه جزيرة قرب مـصب نهر السنغال ـ فيـما يبدو ـ وفي هذا الرباط المـدرسة كانت التربيـة الصالحة الصارمة الشـاملة لأمور الدين والدنيا، ولم تكد تمر فـترة قليلة حتى تكاثر عـدد المرابطين مع الفقيـه وأصبح

1- أحمد بن خالد الناصري ، الإستقصا ، طبع 1954 ج 2 ص 8 .
2 - كان على رأس مسـاعديه يحيى بن عمر وأخوه أبو بكر بن عمر من قبيلة لمتونة .

الكل مستعدا للقيام بواجبه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لتحقيق المشروع المرابطي.

ثالثا : مشروع عبد الله بن ياسين

كان مشروع فقيه المرابطين متكاملا شاملا لخير الفرد والجماعة، ولذلك لم يقتصر على إصلاح المساوئ والمفاسد"المرتبطة بحياة الأفراد الخاصة فحسب "[1] بل تعدى ذلك إلى ضرورة محاربة مساوئ الحكم وظلمه للناس ، كإرهاقهم بالضرائب الفادحة وتعسف المكلفين بالجباية .

ولقد سلك عبد الله بن ياسين سبيلا في السياسة حكيما وفعالا ذلك أنه ترك القيادة العسكرية ليحيى بن عمر اللمتوني الذي اشتهر بمثانة الدين وبالفضل والورع والصلاح [2] واكتفى الفقيه بالتوجيه والإشراف على شؤون المرابطين الروحية والسياسية.

1 - توحيد القبائل الصحراوية

بدأ عبد الله بن ياسين جهاده بمحاربة القبائل الصحراوية حتى صحت عقيدتها وتوحدت وجهتها ونبذت عصبيتها ، وبايعت الفقيه على إقامة الكتاب والسنة ، وقد سلك الرجل سبيل الحزم والعزم ليحقق مجتمعا إسلاميا قويا ، وإلى هذا أشار صاحب القرطاس بقوله " كان كل من أقبل إليه تائبا منهم طهره بأن يضربه مائة سوط ، ثم يعلمه القرآن وشرائع الإسلام ويأمره بالصلاة والزكاة وإخراج العشر وجعل لذلك بيت مال "[3].

وهكذا أقصى عبد الله بن ياسين العصبية القبلية وبدأ يني أسس دولة قوامها جيش من المحاربين الأشداء وفرتهم في البداية قبائل

---

1 - بروكلمان م س ص 318.
2 - ابن ابي زرع ، الأنيس م س ص 127
3 - نفسه 126

لمتونة وكدالة ومسوفة ، وانضـاف إليهم بعد ذلك آخرون من قبائل صحراوية أخرى(1) ولما اشتدت قوة المـرابطين وتوحدت وجهتهم أصـبح في إمكان المـشرف العـام عـبد الـله بن ياسيـن أن يوجهـهم خارج حدودهم إلى الجوار من القبائل السودانية وخاصة إلى شمال المغـرب حيث يعلم عـبد الله بن ياسـين كثـرة الأمراء وحيـث تأتيه أصداء تطاحنهم على الرياسة وظلمهم للناس .

2 – غزو بلاد درعة وسجلماسة

منذ حوالي 445 - 447 هـ وجه عبد الله بن ياسين المرابطين نحو الشمال .حيث استولى على البلاد الخاضعة للمغراويين من بني مـدرار، فـقد قـضى على أمـراء درعـة وسـجلماسـة واسـتـولى على أموالهم .وذكر صاحب القرطاس أن الغزو جاء استجابة لنداء علماء وصلحـاء درعـة وسجـلماسـة، الذين طلبـوا من ابن ياسـين تطهـيـر بلادهم من "المنكرات وشدة العسف والجور"(2).

الإستيلاء على بلاد سـوس والمصامدة : قاد يحيى بن عمر اللمتوني جيوش المرابطين في مواجـهة أمراء سجلماسة. وفي عام 448 هـ تولى أخـوه أبوبكر بن عـمر الـقيـادة العـسكرية وفي هذه السنة تمكن المرابطون من بسط سيطرتهم على بلاد سوس وبلاد المـصـامدة ووصلوا الى أغـمـات التي فـر منهـا أميـرها لقـوط بن يوسف المغراوي عام 449هـ . وقد عين عبد الله بن ياسين الولاة على الأقاليم المفـتوحة وأمرهم "بإقامة العدل وإظهار السنة وأخذ الزكوات والأعشار وإسقاط المغارم على الناس "(3).

3 – غزو برغواطة

من هم برغواطة ؟، اختلف المؤرخون في نسبهم وأصولهم

---

1 - قارن ابراهيم حركات النظام السياسي والحربي في عـهد المرابـطين الدار البيـضاء ب.ت ص 147
2 - ابن أبي زرع، م س.127 .
3 - الناصري، الاستقصا، 2،14.

وقد انـصب الاختـلاف خاصـة على الرجل الذي اعتنقـوا مذهبـه وهو صـالح بن طريف البـرغـواطي .والثـابت من كل الروايات أن البرغواطيين بربر من مصمودة، بحكم الموقع والجوار .وهذا الأمر لايمنع من اختلاط عناصـر أخرى معهم .إذ كان مـوطن برغواطة يشـمل سـواحل الـمـحـيط الأطلسي من دكـالة فـي الجنوب إلى الجهات الغربية من جبال الريف.

أما المـذهب البرغواطي أو العـقيدة البـرغواطية، فـيظهر أنه كـان خليطا من مـعـتقـدات وثنيـة وأخـرى يهودية ومـن مبـادىء خارجـية وأخرى شـيعيـة وإن كان الغالب هو المـذهب الخارجي الصفري.

فصالح بن طريف مؤسس الـمذهب، ادعى النبوة، وكان أبوه طريف أحد قادة الخوارج الصفرية.[1] وصالح هذا خلف إبنه ورحل للمشرق وادعى أنه سيظهر في دولة السابع من خلفائه[2] وقد حرف البرغـواطيون الفرائض الإسلامـية، وقدسوا بعض الحـيوانات وزادوا في عدد الصلوات .لكن هذا التطرف ينسب إلى يونس الذي حاول أن يؤسس مذهبا جديدا، ويفرضه بقوة السلاح[3]

إن هذا التطرف الذي أعـلنه يونس ابن إليـاس بن صـالح بن طريف هو الذي جعل برغـواطة، تظهر كقوة مذهبـية، الأمر الذي جعلها تصطدم بجيرانها.

لقد تعرض البرغواطيون لغزوات متتالية من الدول المجاورة التي حكمت المغـرب الأقصى والأندلس[4] .وإذا كانت مـعارك البرغواطيين ضـد الأندلس والأدارسة وزيري بن عطية وبني يفرن،

---

1 - راجع عن المسـألة البرغـواطيـة، محـمـود إسمـاعيل، مغـربيـات دراسـات جـديدة،1977، ص 53-15

2 - محمود إسماعيل عبد الرازق، الخوارج في بلاد المغرب، الدار البيضاء 1976 ،63.

3 - البكري أبو عبيـد المتوفى عام 460هـ المغرب في ذكر بلاد افريقـية و المغرب، الجزائر، 1857 ص 135.

4 - ابن أبي زرع،م.س .ص 131- 132.

قد أثرت في قوة برغـواطة وقلت من حدها، فـإنها حـافظت على استقلالها إلى أن ظهر المرابطون.

5 - المرابطون ونهاية المذهب البرغواطي

لمـا بسـط عبـد الله بن ياسـين نفـوذ المـرابطـين على بلاد المصامدة وعلى تادلة أصبح وجـها لوجه مع إمارة برغواطة .وهكذا أبدى فقيه المرابطين تصميما قويا على القضاء على مذهب برغواطة المخـالف للسنة وقد اشتبك الطرفان في مـعارك طاحنة " وملاحم عظام مات فيها من الفريقين خلق كثير"(1) ويبدو أن البرغواطيين لم يتـمكنوا من الصـمـود في وجـه الزحف المـرابطي، بدليل تتـبع المهاجمين لأعدائهم البرغواطيين إلى أوعار كريفلة وهي بلاد كثيرة الشعاب والغـابات .وفي كـريفلة قتل إمـام المـرابطين عبـد الله بن ياسين في إحدى المعارك "يوم الأحد الرابع والعشرين من جمادى الأولى عام احدى وخمسين واربعمائة"(2).

وفي هذه الأرض من بلاد زعـيـر دفن ابن ياسـين وبني على قبره ضريح ومسجد(3).

ولقـد أكمل أتبـاعه من المـرابطين بقيـادة أبي بكر بن عـمر المهمة وحـققوا أمل إمامهم المجاهد، فـي القضاء على المذهـب البرغواطي وتوحيد بلاد المغرب.

خاتمة واستنتاجات : كان جهاد عبـد الله بن ياسين جهادا شاقـا وجبـارا لا يستطيع القـيام به إلا العظمـاء من الرجال .فنحن أمـام رجل ابتـعد عـن أهله ومحـيطه القـريب، ودخل في مـحـيط صحـراوي الطبيعـة وفي وسط بشري قليل الأتبـاع، ثم شرع يعلم ويدعـو بين قـوم تتـحكم فـيـهم عـادات وأعـراف تمـجـد الغلبـة

---

1 - الناصري، الاستقصا،2،17.

2 - نفسه، ص 18.

3 - الناصري م س 19
شرع في تجديد وتوسيع المسجد وشق طريق معبدة إليه سنة 1997.

والتعصب للقبيلة ، ومع ذلك نجح في تحقيق الوحدة من التشتت وتأسيس دولة من قبائل متفرقة ومتنافرة .

ما سر هذا النجاح ؟

كان عبد الله بن ياسين عالما تقيا صارما في الابتعاد عن المشتبه من الكسب الحرام ، شديد المحاربة للبدع والظلم متشبثا بالعمل على تحقيق المصلحة العامة لذلك كانت سياسته ترتكز على تحقيق الإجماع حول إقامة السنة والجماعة ، فلا طمع ولا عدوان في سبيل تحقيق غايات آنية فردية بل جهاد ودعوة سلفية توحيدية غايتها تحقيق أمر الله في الاستخلاف في الأرض .وبالفعل لقد تحققت هذه الآمال في عهد يوسف بن تاشفين أمير المسلمين مؤسس أول امبراطورية مغربية في التاريخ . ولقد أنصف الحجوي عندما كتب يقول عن عبد الله بن ياسين": مؤسس الدولة المرابطية وناشر الدين في الأصقاع الصحراوية وفي السودان وناشر المذهب المالكي والمقيم لدولة عظمى على أنقاض دول كثيرة متلاشية بالمغرب ، هذا الرجل أفضل من يتزين بذكره ويتحلى بترجمته كتابنا هذا لأنه مجدد الإسلام في افريقيا الشمالية ومنها وصل إلى الأندلس وعنه انتشر النور بعد الظلمة التي أحاطت بهذه الأقطار "[1]

---

1 - محمد بن الحسن الحجوي ، الفكر السامي في الفقه الإسلامي جـ2، 211.

25 درهما